طالب الرفاعي

أبو عجاج طال عمرك

دار الآداب

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

أبو عجاج
طال عمرك..

طالب الرفاعي

أبو عجاج
طال عمرك

قصص

دار الآداب - بيروت

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٩٩٢

أشياء صغيرة

(. . يـا عمري . .) ويـظلُ هو والمـرآة يلتهـمان جسـدهـا الملتهب بلهفة، بينما هي تبتسم تتلمّظ بنزق لهما. تتدلّل عليه. تجفّف جسدها النديّ، وصوته يرشح بالرغبة:

ـ هيّا. . كفى. .

تتناول قنيّنة عطرها، وصوته يقول راجياً:

ـ كلاّ حبيبتي. . أموت وعطر جسدكِ. .

تُعيد القنيّنة لموضعها، يلاحقها بكلّ حركـة تصدر عنهـا. تنحني، تمدّ يدها إلى الستيريـو، فتسبح غـرفة نـومهما بمـوسيقى عبقة. تنـزلق تدخل معه إلى الفراش. يأخذها إلى صدره. تتمنّع بحبّ. يحتضنها، فتتبعثر لآلىء وياسميناً ورغبة. تشهق:

ـ حبيبي. .

ويغيبان بموسيقاهما. .

* * *

السـادسة والنصف. كعـادته يستيقظ قبـل المنبِّه. بحـذر يسحبُ نفسـه من الفراش. يتـأمّلها نـائمة (. . يـا حبيبتي. .) يسرّ لنفسـه. يخـرج. . يحلق ذقنه. يغتسـل، ويخرج إلى الغـرفة الأخـرى. يبدأ

يرتدي ملابسه.. (.. أحبّ لو تشاركني صباحي..) بهدوء يعود يدخل غرفة نومهما. يتعطّر. يردّ عليها الغطاء، وصوتها نعساً:

- صباح الخير.

ينحني يطبع قبلة على جبهتها و:

- صباح النور.. هيّا انهضي مادمت مستيقظة..

تتمطّى فيكمل:

- هيّا يا حبيبتي.. لا داعي لأن تتأخّري..

- حاضر..

- أنا ذاهب.. مع السلامة..

- مع السلامة..

* * *

الثانية والنصف ظهراً. تترقّب وصوله، بعد أن عادت هي من عملها. تساعد الشغّالة بإعداد مائدة الغداء. تلتقط صوت الباب. يخفق قلبها. تركض لملاقاته و:

- مساء الخير..

تقبّله. يردّ قبلتها، بينما يرتسم على وجهه بقيّة انزعاج كعادته لحظة يصل من عمله. تنظر إليه وصوتها منكسر:

- الغداء جاهز..

- ...

* * *

كعادته يأكل صامتاً، وكعادتها تراقبه، وصوتها:

ـ لماذا لا تتكلّم؟!

يكفّ عن الأكل. يرفع بصره إليها و:

ـ سؤال كلّ يوم..

ينظر أحدهما إلى الآخر. تمرّ لحظة صمت. تبتسم هي و:

ـ ما بك

ـ...

ـ هيّا أكمل أكلك..

وبرغبة أقلّ يعود يأكل..

* * *

كان يحتسي الشاي، وكانت تتابع فيلم الفيديو. يده تمتدّ تقرص فخذها بحبّ، ويستحثّها صوته:

ـ تنامين؟!

تبتسم له. تغمز مفلتة:

ـ أُكمل الفيلم..

يسكت. يسحب يده، ينهض و:

ـ سأنام قليلاً..

ـ...

يدخل الفراش، تلحق به. يطوّقها. يقبّلها على طريقته التي تعرفها. يشتمّها. تتملّص منه. تهمّ تخرج. تلتفت إليه.. تبتسم. تعود إليه. تنحني تقبّله و:

ـ أتركك تنام حبيبي..

يهمد هو، وبهدوء تردّ هي باب الغرفة خلفها..

* * *

يستيقظ على صوت السيشوار يأتي من الغرفة الأخرى.. (.. عدنا إلى الزفت..) يحدّث نفسه.. (لا فائدة.. مراراً قلت لها أحبّ شعرك مجنوناً، منطلقاً بلا حدود.. الزفت السيشوار يحرقه..) يهمّ ينهض. (.. لا داعي للنكد..) يظلّ متمدّداً. تداهمه بفرح تقف أمامه. تضيء نور الغرفة. تستدير رافعة شعرها، وبلهفة تسأل:

ـ حلوة..

ينظر إليها، ويخرج صوته رمادياً:

ـ سيشوار..

ينطفىء ألَقُها. تغادر الغرفة. يقفز كالملدوغ. يلحق بها. يمسك بها في الممرّ. يرفع وجهها بين يديه. ينظر في عينيها. يعشقهما دون مكياج، وبحبّ يهمس بها:

ـ أنا أحبّكِ..

ـ...

* * *

يُنهي هو استحمامه. يخرج. تدخل هي على أثره إلى الحمّام. (.. يا الله.. كعادته أبداً.. لم ينفض الستارة من الماء العالق بها.. والصابونة.. والليفة.. لا فائدة..) تبتلع ضيقها. تعيد ترتيب الحمّام..

ـ نعمياً..

يصله صوتها. وباسماً يلتفت:

ـ ينعم عليك حـ . .

وصوتها يقاطعه:

ـ الحمّام كالعادة يا حبيبي . .

ولم يكمل جملته . .

* * *

ـ دقيقة . . أنا قادمة . .

ـ سأنزل أنا . .

يتوجّه إلى السيّارة. يُدير المحرِّك. يبقى ينتظرها . . (. . يا الله . .) ينفخ حانقاً. ينادي عليها بمنبّه السيّارة. يبقى لوحده وضيقه. تظهر مسرعة. تفتح باب السيّارة مبتسمة. تفلت:

ـ آسفة . .

وبضيق يردّ هو:

ـ دائماً . .

يخيّم الصمت، وتنطلق السيّارة . .

* * *

الإشارة الضوئيّة حمراء. يدها تمتدّ ترفع صوت مسجّل السيّارة. الإشارة حمراء. (. . لا أفهم كيف تستلذّ تستمع للمسجِّل هكذا؟ . .) يده تمتدّ. يخفض صوت المسجِّل قليلاً. تنظر إليه، وبضيق تتساءل:

ـ لا أعرف كيف تسمع هكذا؟!

ـ . . .

الإشارة خضراء. تتحرّك السيَّارات. هو ساكت، ويدها تمتدّ لتغلق المسجِّل. .

* * *

مسرعة تصل قبله إلى البيت. بحذر تحمل باقة الورد. أكثر من مرّة تغيّر ترتيبها، وعندما يصل:

ـ مساء الخير.

ـ مساء النور.

يقبِّلها، ويقصد غرفتها ليستبدل ثيابه. لوحدها تُحدّث نفسها (. . سيفرح بالورد. .) تعود تلقي نظرة عليها. تنقى تنتظره. تجهِّز عشاءهما. يجلسان يتناولان العشاء، وتنبس تفلت:

ـ شكراً للورد. .

ينظر إليها، وجادّاً يسأل:

ـ أيّ ورد؟!

ـ . . .

* * *

بجسدها الربَّاني المتفجِّر تقف أمام المرآة. الموسيقى تنساب تلهو وضوء غرفتهما الخافت. تدُغدغها رغبتها. تدخل معه الفراش.

يتسرّب إليه عطر جسدها. يحتضنها، ويغيبان في الموسيقى..

* * *

بعد مرور ثلاث سنوات، فوجئ معظم الأصدقاء عند سماعهم خبر الطلاق.

٢٥ ـ آب (أغسطس) ـ ١٩٩١

الانسان لا يموت

مازلت تتذكَّرها ليلتك الأولى هنا، في الكويت. كان الوقت قبل صلاة المغرب بقليل. دخلت أحد بيوت العزَّاب، في منطقة المرقاب. جميعهم من الوافدين، جاءوا بحثاً عن لقمة العيش. في حوش البيت الترابيّ، قابلتك أسِرَّة خشبيّة، وحديديّة كثيرة. كلّ شيء كان جديداً عليك: وجوه الناس، ملابسهم، الرطانة التي كانت تدور بين بعضهم البعض، ونظراتهم.

ثلاث وعشرون سنة مرَّت على ذلك المساء. بقيت مدّة تبحث عن عمل، وأخيراً تمّ توظيفك في وزارة التربية: عامل شاي وقهوة. فرَّاش. سألوك:

- هل تجيد عمل الشاي والقهوة؟!

وبثقة أجبت:

- أكيد..

وتمّ قبولك. حمدت الله على قسمته، وهكذا بدأت حياتك هنا.

بعد أن استقرّ بك الحال، بحثت عن منزل صغير، وكتبت لوالدك رسالة، ختمتها بقولك: والدي العزيز! أرجو أن ترسل زوجتي مليحة، فلقد استأجرت منزلاً صغيراً لنا. ودائماً سأبقى ابنك البار..

* * *

فرحت بها كطفل يوم وصلت مليحة. احتضنتها طويلاً، بقيت تحوم حولها أينما ذهبت، وكانت تصدّك بغنج، تردّد:

ـ محمود. . كفى!!

طلبت منها أن تكلِّمك عن كلّ شيء هناك في الوطن:

ـ ملّوحة. . حبيبتي حدّثيني عن كلّ شيء: أمّي، أبي، إخوتي، بيتنا، البساتين، العصافير، الزرع، النهر، جلسات المساء حول النار، و. . ، و. . ، و. .

توسَّلت إلى ملّوحة أن تأتي على كلّ التفاصيل، وفي المساء طوّقتها فشهقت روحك. تهامست وإيَّاها. توزَّعت بين رائحة جسدها الشهيّ، وبين مذاقه الطعم، وغبتما. .

* * *

يوم باشرت عملك، أرسلوك إلى هذه المدرسة، ولم تزل تجلس في الغرفة ذاتها. ثلاث وعشرون سنة انقضت وأنت تجلس فيها. أشياء كثيرة تغيَّرت: كم ناظراً جاء وذهب؟! كم من المدرِّسين، درَّسوا هنا وذهبوا؟! وكم من الأطفال تخرَّج من هنا؟! وحدك بقيت تجلس فيها. أمامك الخزانة، بداخلها أكياس الشاي والقهوة والسكّر والأكواب والصحون، يلاصقها موقد الغاز، ومسافة صغيرة تفصله عن حوض الغسيل.

في إحدى المرَّات، كنت في المستوصف، اعتنى بك الطبيب بطريقة زائدة: جلس معك مدّة أطول، سألك عن كلّ شيء، وفحصك في أكثر من موضع، وقبل أن تخرج من عنده، سألك بودّ:

- أما زلت تلازم غرفتك في مدرستنا القديمة؟!

- . . .

* * *

طوال يومك وأنت متهالك على كرسيّك، تقابلها: الخزانة التي بهت لونها، وحوض الغسيل الأبيض، وخلفها الحائط الأصفر. اعتدت ضجّة أطفال المدرسة، وصراخهم، ولعبهم، وشقاواتهم.

- أبو شاكر!

صوت زميلك أبي سليم ينتشلك و:

- الناظر يطلبك. .

نظرت إليه. ربّما كان يمزح كعادته. يحاول أن يسلّيك، ويخرجك من وحدتك. استمرّ يقف في مكانه، وصوتك يستفسره:

- يطلبني أنا؟!

- نعم.

أحسست ببعض تجهّم يلوّن وجهه، فنهضت متمتماً:

- يا الله سترك. .

* * *

- تفضّل يا أبا شاكر. .

من خلف مكتبه، أشار لكَ الناظر بالجلوس، وصوتك:

- شكراً. .

فضّلت أن تبقى واقفاً إلى أن ينجلي الأمر. قرأت على وجه

الناظر الانزعاج. خمّنت وجود ما لا يسرّ، ويأمرك. قال:

ـ اجلس يا أبا شاكر.

متردِّداً جلست. دار بخلدك (.. ربّما كانت عنده وليمة، ويريدني ومليحة، لنساعد في الطبخ، وغسل الصحون..) اختلست النظر إليه، فبادرك:

ـ أبو شاكر..

سكت هو لبرهة، فخاطبته أنتَ:

ـ أنا وأمّ شاكر تحت أمرك..

ـ لا.. لا.. شكراً.

قالها دون أن ينظر إليك. بدأت تقلق. سكون ثقيل يرتفع بينكما. وكمن يتخلَّص من شيء يضايقه، قذف بجملته:

ـ لقد تمَّ الاستغناء عنكَ..

بقيت مدّة تنظر في وجهه. كُنت تحاول أن تستوعب جملته. كيف تراك لم تحسب حسابها من قبل؟! خيط من عرق ينزلق من إبطك على خاصرتك.. (أين سأذهب وأسرتي؟! هذا هو وطننا.. جميع أبنائي ولدوا هنا.. ليس لي مكان ألجأ إليه.. كيف سأعيش؟! من أين أكدّ عليهم..) أشياء كثيرة داهمتك. سريعاً مرَّ أمامك شريط عمرك منذ لحظة وصولك إلى هنا. (.. هل انتهى كلّ شيء؟! وصباح الغد إذا لم أجيء إلى هنا، فإلى أين أذهب؟!..)

ـ أبو شاكر..

أعادك صوت الناظر:

- الله كريم.. هذه ليست نهاية العالم..

عدت تنظر إليه. استجمعت قواك ونبست:

- أليس هناك مجال للتراجع؟!

- للأسف.. السيّد الوكيل وقّع القرار.

هزَّ الناظر رأسه. أحسست أنّ جو الغرفة أصبح خانقاً، وأنّك تتنفّس بصعوبة. استعنت بيديك لتنهض، وقبل أن تخرج قُلت:

- شكراً..

ولم تسمع ردّاً..

* * *

رنين جرس المدرسة المتواصل يخرجك من عزلتك. نظرت لساعة يدك، وتمتمت:

- جرس الحصّة الأخيرة..

نهضت عن كرسيّك. أحسست بنَفَسك مشدوداً لكلّ شيء فيها: غرفتك. ثلاث وعشرون سنة، وأنتما متلازمان. ثلاث وعشرون سنة وأنت تُسِرُّ إليها بكلّ ما في نفسك، وأبداً ظلّت تُصغي لك. شخت، وشاخت معك، وأبداً بقيتما أحبّة.

ظلّت عيونك معلّقة على الحائط والخزانة وحوض الغسيل، ومقعدك. (هل انتهى كلّ شيء؟! هل انفرطت علاقتنا؟!) أحسست بغصّتك تصعد بك. وحدك وغرفتك والصمت. تودّعها. تدمع عيناك، وتنتزع روحك. خرجت..

* * *

أبو سليم كان ينتظرك في سيّارته، وصوته:

ـ تأخرّت يا أبا شاكر!!

هـززت رأسـك، ولم تتكلّم. صعـدت جلست بجـانبـه. لم يكن مرحاً كعادته (.. نفس المصـير ينتظره..) حـدّثت نفسك، ونـظرت لأبي سليم، وبثبات نبس صوتك:

ـ الإنسان لا يموت يا أبا سليم!

ـ أبداً..

أنعشته جملتك، امتدّت يده للمذياع و:

ـ أنا حاضر يا أبا شاكر..

ـ سلمت..

رددت عليه ممتنّاً، وسرحت وحزنك..

الكويت ٢٣ ـ آب (أغسطس) ١٩٨٦

شاشة

تُسرع بخطواتها. تدخل سيَّارتها. تسحب الباب بضيق خلفها. تنقطع في الحال ضجَّة الشارع، والرذاذ الذي يلاحقها:
ـ أُف..

تجلس أمام شاشة كمبيوتر السيَّارة. (.. أذهب للفندق.. ربما يمرّ عليَّ الليلة..) تختار برنامج سيرها. تضغط أحد أزرار التحكُّم، فتتحرَّك السيَّارة..

مسترخية هي. تُنقِّل بصرها من خلف الزجاج، و:
ـ أُشاهد فيلم الڤيديو أفضل..

تُحدِّث نفسها. تتناول جهاز التحكُّم من بُعد. تنتقل تجلس متمدِّدة في المقعد الخلفي. تضغط زرَّاً، فيظلم زجاج السيَّارة، وزرَّاً آخر فتتدلَّى من السقف شاشة، ويدور الفيلم..

تغيب هي داخل أحداث الفيلم. تنعزل عن عالم الطريق، ووحدها السيَّارة تسير..

* * *

ينفتح أمامها مدخل الفندق من تلقاء نفسه. تخطو داخلة. يحملها شريط نقَّال. يضعها أمام المصاعد. تضغط زرّ طابق غرفتها. تغمض عيناً وتفتحها. يقف المصعد. تخرج. يحملها شريط نقّال. يضعها أمام باب غرفتها. تضغط بطبعة إبهامها على زجاجة صغيرة فوق أكرة

الباب. ينفتح الباب، وفي اللّحظة ذاتها تُضاء أنوار الغرفة، وتنبعث الصور المجسّمة في التلفزيون.

تخطو داخلة. تُعلّق حقيبة يدها على المشجب. تتفقّد ببصرها الغرفة، بينما يدها تُرخي حزام تنوُّرتها (.. مللت هذا.. كلّ شيء كما هو.. جامد، ونظيف، ومرتّب حتى الموت..) تهمس لنفسها. تتخلّص من قميصها. تفكّ أزرار التنوّرة. تعبث بحمّالة صدرها، وبضيق تسحبها مفلتة:

ـ أُف..

تقذف بها. تدعك ثدييها. تنزلق عن ردفيها التنوّرة. تتكوّم عند أقدامها. تلقي بنفسها على السرير.

وحدها وطنين الصمت. تنقلب فيصبح وجهها في مقابلة السقف. تسرح في لاشيء. (.. بارد.. مستوٍ تماماً.. خال من أيّة نقوش أو حياة هو السقف، وكذلك أنا..) تُحدِّث نفسها. يبرق بها هاجس (.. ربّما اتّصل هو..) تُسرع. تستدير. ترفع رأسها. تشخص ببصرها: على المنضدة قرب رأسها شاشة صغيرة مضاءة. تقرأ عليها عبارة: اتّصلت السيِّدة تاء. تخبو نظرتها، تعود تنزرع الخيبة في عينيها.

* * *

تقف مستسلمة في البانيو. تستند بظهرها تُلامس صحيفة معدنيّة ممغنطة تتكوَّن من آلاف الخلايا الصغيرة. تحتضنها الصحيفة، وتتشكّل. تأخذ انحناءات ظهرها وإليتها. ينبثق من الجانب ذراعان

معدنيَّتان تتحرَّكان بهدوء. تُدلكان جسدها. تمرَّان على جميع انحناءاته وزواياه. تستدير هي، وتكمل الذراعان حركتهما. حين تتوقَّفان، يندفع رشَّاش قويّ من الماء، يزيل عن جسدها كلّ شيء. يدغدغها بلذّة، ينعشها.

تخطو تدخل صندوق التنشيف. يضجُّ تيَّار هواء معطّر. تخرج بعد برهة. تقف عارية أمام المرآة. تتأمَّل جسدها. تتناول فرشاة شعرها. تبدأ تسرِّح شعرها. تفتر حركة يدها. ترتخي. تقترب أكثر من المرآة؛ تكاد تلتصق بها.

- بدأت أكبر..

تُفلت تحدِّث نفسها. تتفحَّص تحت عينيها. جبهتها. تلوي شفتها. تنحدر لرقبتها. تتوقَّف عند صدرها. تخطو إلى الوراء خطوة. تضع راحة يدها تحت أحد ثدييها، وكأنَّها تَزِنه. رخواً يستقرّ على راحتها، ومتحسِّراً صوتها:

- تهدَّل..

ترفعه قليلاً. تضغطه. يندفع متكوِّراً صلباً إلى الأمام. (.. كان هكذا..) تبقى لبرهة متجمِّدة بوضعها. تتحسَّر. تترك ثديها، وبآليّة تعود تمشط شعرها..

* * *

تجلس أمام جهاز التلفون المتَّصل بشاشة. تضغط رقماً. تنبعث على الشاشة صورة غرفة، وطفلة تشاهد التلفزيون:

- هالو مامي..

ـ هالو حبيبتي! أَما زلتِ مستيقظة حتَّى الآن؟!

تسكت الصغيرة لا تُجيب:

ـ هيَّا.. هيَّا انهضي اذهبي لغرفتكِ!

تنهض الصغيرة. تلوح على الشاشة صورة امرأة قادمة:

ـ هالو مدام.

يقول صوتها حادّاً:

ـ لماذا (س) مستيقظة حتَّى الآن؟!

ـ أصرَّت هي على مشاهدة التلفزيون.

ـ ودروسها؟!

ـ راجعتها مع الكمبيوتر.

ـ حسناً.. لتلحقي بها الآن..

وقبل أن تسمع ردّ المرأة، تُعيد سمَّاعة التلفون، فتختفي الصورة، وينقطع الصوت..

* * *

تفتح خزانة ملابسها. تستخرج بعض ثيابها. تنحني ترفع صندوق مجوهراتها. تجرّب بعض حليها. تتأمَّل نفسها في المرآة. ترتدي أحد فساتينها. تخلعه، ومتململة تُفلت:

ـ متى سأراك؟!

تقصد الشاشة (.. سأكلمها..) تضغط رقماً. تُضيء الشاشة ولكن دونما صورة:

ـ آلو!

ـ نعم . .

يصلها صوت الآخرى رائقاً، وهي :

ـ افتحي الشاشة.

ـ أهلاً . . أهلاً . .

ـ افتحي يا . .

ترتفع ضحكة ماكرة و:

ـ آسفة . .

ـ ماذا؟!

تعود الأخرى لضحكتها، وتقول هي بانكسار:

ـ آه . . فهمت . .

ـ تُنهي المكالمة . .

* * *

(مضى أسبوع ولم يتَّصل . .) تخلع عنها قميص نومها. (. . لست أعلم أين هو. .) تتعرَّى (. . كلب. .) تلتفت نحو الشاشة. تُدير الراديو. (. . لم أعد أحتمل. .) تنساب موسيقى حالمة. (. . كلّ شيء صار مملاًّ . .) تُطفىء الأنوار. (. . أكاد أجنّ لوحدي . .) ترمي بجسدها العاري على السرير. تعتصر نفسها. تُفلت:

ـ أوه . .

يرنّ التلفون. يخفق قلبها. بلهفة تهرع نحو السمَّاعة و:

ـ آلو. .

ـ مساء الورد. .

يصلها صوته. فتدبُّ فيها الرغبة، وتتصنَّع الهدوء. تردّ:

ـ أهلاً . .

ـ افتحي الشاشة!

ـ لحظة . .

تسحب الغطاء تُخفي بعض جسدها، تضغط زرّاً، فتضاء الشاشة، وتنبعث صورته مستلقياً على فراشه، ومراوغاً صوته:

ـ مشتاقين . .

ـ عيَّاد . .

ـ أنا؟!

ـ طبعاً . . أين كنت طوال الأسبوع؟!

ـ العمل . .

ـ آه!

ترفس الغطاء عنها، ويقول صوته مُستطيباً:

ـ الله . . الله . .

تنقلب صوبه، فيصرخ:

ـ عمري . .

وبخبث تفحّ:

ـ ما بكَ؟!

يقفز من فراشه. يتخلَّص من سرواله. يقابلها، فتنفجر هي بضحكتها، ونشوان صوتها تسأله:

ـ ما هذا؟!

ونزقاً يردّ:

ـ ألا تعرفين . . .

٢٩ ـ آب (أغسطس) ـ ١٩٩١

إجازة

. . الخامسة والنصف صباحاً. الهدوء يخيِّم على موقع عملك. برضى ينبسط ساكناً هذا المارد الجبَّار. تحبّها هذه اللّحظة الراجفة. تحسّها في كلِّ مرَّة، أقرب ما تكون إلى الصفاء الذهنيّ، المعطَّر بلذَّة خفيَّة. دائماً تسيطر هذه الحالة عليك، كلّما اختليت بموقع عملك.

وصلت مبكراً قبل الجميع. تركت رجليك تأخذانك حيث تشاءان. تفقَّدت القواعد الاسمنتيّة المسلَّحة التي تمَّ صبّها بالأمس. الخلطة السحريّة، خلطة القرن العشرين: اسمنت، وصلبوخ، ورمل، وماء، وأسياخ الحديد، وجهد الإنسان: يشكّلها كيفما يشاء، يمسح عليها، ويغطّيها: يستر تفاعلها، ويتركها ساعات قليلة، وبعدها يأتي المولود: أبنية شامخة تتحدَّى الزمن.

بعد قليل يصل العمَّال، يستقبلهم الموقع بودّ، وما هي إلاَّ لحظات حتَّى يرتفع الصخب من كلِّ صوب، وتدبُّ الحركة في كلِّ زاوية. تحرص على رؤية العمَّال لحظة وصولهم. يسعدك اصطيادهم بعينيك والرَّاحة ترتسم على وجوههم ـ لحظة عابرة، ما تلبث أن تتبخَّر ـ لحظة يترجَّلون من باصاتهم، ونعاس لذيذ متلاشٍ يلاحقهم. تبدو حركتهم أبطأ. ترتفع أيديهم في الهواء، تندفع صدورهم إلى الأمام، تتشكَّل دوائر فوق رؤوسهم، وما تلبث هذه الدوائر أن تنفتح إلى الخارج حتَّى تستقرّ أيديهم إلى جوانبهم.

تناهى إلى مسامعك لغط العمَّال. من مكانك راقبتهم. وحين ترجّل مُكني، ارتفع صوتك بنداء:

ـ مُكني . .

انتبه العمّال لوجودك، فتسرَّبت الجدّيّة لحركتهم:

ـ نعم . .

ارتفع صوته بالردِّ قبل أن يتبيَّن مكانك. أشرت إليه، فأسرع نحوك:

ـ صباح الخير باشمهندس . .

تضجُّ بالحيويّة كلماته، وأنت:

ـ صباح النور. . بعد أن تغيِّر ملابسك، رشَّ قواعد الأمس ثمّ تعال لمكتبي!

أدرت ظهرك ولكن صوته تبعك:

ـ هل وافقوا على إجازتي؟!

قالها متلهِّفاً، وصوتك:

ـ رشّ القواعد، وتعال لمكتبي!

ـ حاضر باشمهندس . .

قالها واندفع يركض . .

* * *

في طريقك لمكتبك. استرجعت أوَّل لقاء لكَ بمُكني. لم يكن حتَّى ذلك اليوم قد لفت انتباهك. أحد عمّال الموقع. واحد من ثلاثمائة، أو أكثر، لا تعرف أسماء أغلبهم.

عندما سقطت عن سقالة الطابوق، لتستقرَّ على الأرض، كان

مُكني أقرب العاملين إليك. هبَّ من مكانه. انحنى عليك. وحملك بين يديه، وركض بك.

حالة من الهرج شملت الموقع. تراكض عمَّال قطاعك تاركين أماكن عملهم. تجمَّعوا حول مكتبك. تماسكت، وحاولت تهدئتهم، وأنَّك بخير، وأمرتهم أن يعودوا إلى أعمالهم.

في ذلك اليوم نشأت بينكما علاقة خاصّة. أنتَ ومُكني. صرت تعامله بودٍّ مستتر، عامل نشيط وذكي ومخلص، ولم تبخل عليه بمساعدة.

- صباح الخير باشمهندس..

جاءك صوت اسحاق، صبي الشاي والقهوة في مكتبك:

- صباح النور..

- أحضر لك قهوتك؟!

- نعم.

وباشرت تتفحَّص الأوراق المتجمِّعة أمامك..

* * *

نقر خفيف على باب مكتبك، ينتشلك من بين أوراقك:

- تفضَّل..

انفتح جزء من الباب، فأطلّ وجه مُكني:

- ادخل!

وقف على بُعد منك. لضخامة جسده الرجوليّة حضور يملأ

المكان: شاربه الكثّ، أنفه المعقوف، بروز وجنتيه، شموخ صدره، ونظرته الثابتة:

ـ نعم باشمهندس؟!

بقيت لبرهة تنظر له. أشاح هو بوجهه عنك، وبلطف انطلق صوتكَ:

ـ رفضت الإدارة إجازتك..

ظلَّ صامتاً كأنَّه لا يُصدِّقك، وتستنطقه. سألته:

ـ ما رأيك؟!

ـ ...

ـ تكلَّم.. منذ متى لم تسافر؟!

ـ خمس سنوات..

قال بصوت مهزوز، بينما ظلَّت نظراته معلَّقة بوجهك. بدا متململاً في وقفته، وصوتك يأمره:

ـ اجلس!

أشرت إليه، ولكنَّه أفلت:

ـ شكراً باشمهندس..

ظلَّ في وقفته، فانطلق صوتك، وشيء من حدّة يلوِّنه:

ـ اجلس يا أخي..

تلفَّت حوله. وعلى وجل رجع للخلف، وجلس منكمشاً على أقرب كرسيّ.

ـ ماذا هناك يا مُكني؟!

- أرجو أن تساعدني يا باشمهندس.

نبس يردّ على سؤالك، وأنت:

- لا أستطيع..

- باشمهندس أنتَ كلّ شيء في الموقع..

ابتسمت، فأكمل هو:

- لو أردت شيئاً فسيكون..

هززت رأسك. امتدَّت يدك لعلبة سجائرك، أشعلت سيجارة. أخذت نفَساً عميقاً. رفعت بصرك إليه. كان ينظر لك، فقلت:

- إدارة الشركة وحدها تقرِّر هذه الأمور..

أراد أن يقاطعك، فأشرت له:

- أنت تعرف بأنَّ حالة العمل في المشروع لا تسمح..

كان ينتظرك تفرغ من كلامك، وعندما انتهيت ظلَّ هو ساكتاً فقلت له:

- تفضَّل ماذا تريد أن تقول؟!

- أنا كذلك يا باشمهندس حالتي لم تعد تسمح.. أودُّ أن أُسافر لأسرتي وأطفالي..

سكت لبرهة، وعندما لم تنطق أنتَ بشيء أكمل هو:

- تعبت يا باشمهندس.. لم أعد أحتمل..

أحسست أنَّ صوته يتهدَّج..

- باشمهندس.. خمس سنوات لم أرَ أطفالي.. في آخر مرّة سافرت رفضني ابني الأصغر.. لم يتعرَّف عليّ..

وتستوقفه. قلت:

ـ مُكني.. حاولت أن أساعدك، ولكن إدارة الشركة لم توافق..

ـ باشمهندس أنا أعمل معك.. أرجوك ساعدني..

ـ ولكنّي لا أستطيع..

رفعت نـظرك إليـه، فلمحت دمعـة تـترقـرق في عينيـه. وتشي الحشرجة بصوته. أفلت:

ـ تعبت يا باشمهندس

تململت في مقعـدك. أشعلت سيجارتـك الثانيـة. عـزمت عليـه، ولكنّه شكرك بأدب. حاولت أن تلملم المـوقف، ولكن صوتـه جاءك من بعيد:

ـ بـاشمهندس.. عنـدما يصلني شريط مسجَّـل من أسرتي: أحمل مسجِّلتي وأصعد إلى السطح. أظلّ أسمعه، مرّة، وثانيـة، وثالثـة.. أبكي عندما أسمع أصواتهم، صارت تختلط عليّ..

ـ مُكني..

قاطعته، فاعتدل في جلسته، وعاد ينظر إليك وصوتك:

ـ صدّقني أودّ مساعدتك، ولكنّي لا أستطيع..

ظلَّ ينظر إليك و:

ـ باشمنهدس أنتَ..

ـ يا أخي أنا ماذا؟!

صرخت به. تجمَّد على كرسيّه، ومنكسراً نهض يجرُّ قدميـه، يخرج من مكتبك..

الكويت ٢٣ ـ حزيران (يونيو) ـ ١٩٨٨

أحزان صغيرة

دائماً كُنتَ أنتَ الذي يُحضر سارة من المدرسة.. أذكر أنّي جئت مرّتين أو ثلاثاً وأخذتها.. لم أعد أحتمل.. كم أنا مشتاقة لرؤيتك؟! أحتضنك. أشتمك، وأسمع صوتك.. وضحكتك الحبيبة.. متى؟! أخذت يومي معكَ ورحلت. أعيش طوال يومي على ذكرى لحظاتنا.. وفي كلّ لحظة أنتَ أمام عينيّ..

صار منظر أيّ رجل وامرأة يثيرني.. أين أنتَ يا حبيبي؟!.. تأخّرت سارة اليوم.. مجموعة كبيرة من الأطفال خرجت.. يا الله ما أحلاّك!! الله يخلّيك.. حلوة عيونه.. كنت أتمنّى أن يكون لسارونا أخ مثله.. كنّا نخطّط للطفل الثاني.. ولكن..

لطيف الجوّ هذه الأيّام.. ورءو الأصفر.. في أوروبّا هذه الأيّام، درجة الحرارة تصل إلى خمسة عشر.. فيروز.. ورءو الأصفر شهر أيلول.. يا الله يا سارة.. أين أنتِ؟!

- مساء الخير!
- مساء النور.
- ألم يخرجوا بعد؟!
- كلاّ.

ماذا فعلتَ بي؟! صرت أتحاشى النّاس.. كأنّي أُريد أن أبقى أسرح فيك طوال وقتي.. لا أرغب أن يأخذني أحد، ينتزعني منكَ..

لـذيـذة نـداوة الجـوّ. . أين تـراك أنتَ الآن؟! ومـا الــذي تفعله اللّحظة؟! . . للحيوانات مواسم لـلإخصاب. . بـالنسبة لـلإنسان لا وقت محدَّد للحبّ. . دائماً نحن عِطاش للحبّ. . ربَّما لأنَّنا نحسُّ أكثر من الحيوانات، فإنَّنا نحتاج للحبِّ أكثر منها. . وربَّما لأنَّنا نفكِّر، فـإنَّا نحتاج للحبّ. . من أين تجيء هذه الرغبة الجـامحة لـلاتّحاد بـالآخر، والمـوت على صـدره؟! وكيف تتأجَّـج هذه الـرغبة الحـارقـة، تصبـح غولاً؟! أتراهم مرضى أولئك الذين يقدمون على الاغتصاب؟! أم أنَّ رغبـاتهم أقوى منهم، أو هم أضعف من أن يبقـوا مرضى؟! لـو كـان لـلإنسان مـوسم محدَّد لـلإخصاب لَـوَلِـد الأطفـال في نفس المـوسم. . جميـع أعيـاد الميـلاد كـانت ستكـون في هـذا المــوسم. . متى ستعـود وأراك؟! أجلس معك. . صرت أخاف الجلوس مع سارونا. . في كلِّ الأوقـات أنت مـوجـود معنـا. . أيلول شهـر الحبّ. . شهـر رائق. . دبق. . فوّاح. . يا حبيبي. .

ـ سارة. . ساره!!

ـ ماما!

ـ هلا حبيبتي.

ـ مع السلامة!

ـ مع السلامة.

* * *

لست أعلم هـل أنـا أصبحت حسَّاسـة، أو أنَّها هي كـذلـك؟! صرت أقرأ الحزن في نظراتها، وفي كلِّ صمتها. .

ـ ماذا أخذتم من دروس اليوم؟!

ـ ماما . . مدرّسة العربي أعطتني نجمة . .

يجب أن أضع بنزين في السيَّارة . .

ـ شاطرة حبيبتي . .

صارت تفتقدك كثيراً . . ما ذنبها أن تعيش دون أَب؟! ما ذنبنا أنا وأنت . . ولماذا كلّ هذا العذاب؟! . .

ـ ماما! نذهب اليوم لبيت خالتي؟!

ـ اغلقي الباب جيِّداً!

ـ نذهب؟!

ـ كلاَّ .

ـ لماذا؟!

ورءو الأصفر شهر أيلول تحت الشبابيك . .

ـ نذهب يوم الخميس . .

زكَّرني ورءو ذهب مشغول . .

ـ لا تستندي على الباب! تعالي إلى هنا!

ـ ماما!

ـ نعم؟!

ـ نذهب لمركز الألعاب؟!

ـ لا .

ـ لماذا؟!

ـ بالأمس كنَّا هناك . . لحظة يا أخي . .

ـ ماما!

ـ لحظة يا ماما.. لأفسح الطريق له..

ـ ماما.

ـ لحظة يا بنتي! تفضَّل ياأخي.. طير إلى الـ... نعم ماما..

ـ لا شيء.

ـ تريدين شيئاً.

ـ ...

لا أطيق أن أرى هذا الحزن عليكِ.. يقتلني..

ـ ماما!

ـ نعم حبيبتي.

ـ إنتِ متضايقة؟!

ـ لماذا؟!

ـ سؤال؟!

ـ كلاَّ.

سنعود لموضوع كلّ يوم.. متى سيرجع بابا، وأنا أحبّ بابا.

ـ ماما!

ـ نعم..

ـ أضع الشريط؟!

زكِّرني فيك.. زكِّرني فيك..

ـ ضعيه..

رجع أيلول، وانت بعيد..

بغيمة حزينة، آمرها وحيد..

* * *

ـ سارونا.. سارونا.. يا ماما!!

ـ نعم.

ـ الأكل.. هيَّا.. تعالي!

سيبقى مكانك خالياً.. مضت قرابة السنة على سجنك.. كأنَّه الأمس يوم جاءوا وأخذوك..

ـ نعم ماما؟!

ـ الغداء يا بنتي.. هيَّا.. هل غسّلتِ يديك؟!

ـ نعم.

ـ تفضّلي..

يومها قالوا لكَ بعض الأسئلة وتعود.. كريهة عيونهم.. وسِخة.. مسعورة نظراتهم.. ظلَّت تلاحقني.. تخترقني. وعندما نهضت، أردت استبدال قميص نومي، منعني رئيسهم، زجرني قائلاً:

ـ ابقي في مكانكِ!

ـ ماما!

ـ نعم..

ـ لا أريد اللّحم.

ـ ماذا تريدين؟!

ـ رزّ ومرق..

ـ وماذا أيضاً؟!

ـ . . .

صرخ بي الكلب مقطّب الحاجبين:

ـ لا تتحرَّكي من مكانكِ!!

انكمشت على نفسي.. فتَّشوا غرفة نومنا.. قلبوا غرفة مكتبك.. مرُّوا على الحمَّامات.. وأخيراً انتشروا في الصالة، يبعثرون كلّ شيء.. بقينا أنا وأنت في مكاننا..

ـ خذي بعض السَلَطة..

ـ . . .

ـ خضرة؟!

ـ لا أريد..

كُنتَ تظلّ تلاحق سارونا، تلحُّ عليها، وتتحايل عليها بكلِّ الوسائل لتأكل:

ـ أضع في صحنكِ كوسة؟!

ـ واحدة.

ـ خبز..

ـ . . .

ـ مع الزبدة..

ـ نعم.

ـ تفضَّلي!!

ـ شكراً ماما.

قبل أن يخرجوا، أشار رئيسهم إليك قال يخاطبك:

ـ هيَّا.. تفضَّل معنا.

وعندما حاولت أن تعرف منه قال:

- تفضَّل معنا وستعرف كلّ شيء..

أردت أن تناقشه، ولكنَّ أحدهم سحبك.. نهضت أنا معكَ، ولكن يدي شرطي آخر أَجلستاني.

- ابقي مكانك دون صوت.. فقط نستفسر من الأستاذ بعض الأسئلة، وسيرجع..

ولم ترجع.. كنت تحبّ الكوسة.. تأكلها متمهِّلاً.. تتلذَّذ، ونبقى نتحدَّث أنا وأنت، ونسرح، وعندما يسرقنا الوقت، ننتبه ونضحك، وكنت تقول.. أحبّ عمري فيك.. يا حبيبي..

- أضع لكِ كوسة أخرى؟!

- ...

- تفضَّلي!

- ماما!

- نعم.

- ألم يتَّصل بابا؟!

- كلاَّ.

- ولم يبعث رسائل جديدة؟!

- لا..

- ألا نستطيع أن نتَّصل به نحن..

- لا أعلم.

- أودُّ لو أكلِّمه..

- ...

يا الله إلى متى هذا العذاب؟!

ـ متى سيعود هو؟!

ـ لا أعلم يا حبيبتي.

ـ ولكنّه سيرجع.

ـ إن شاء الله.

ـ ماما!!

ـ . . .

ـ أنا أحبُّ بابا.

ـ تريدين خبزاً بالزبدة؟!

ـ كلاَّ.

ـ لماذا؟!

ـ شبعت..

الله يا ساره.. حتَّى أكلك مخلوط بالحزن!!

* * *

صرت أستثقل جدًّاً فترة ما قبل النوم.. أظلّ طوال اليوم أفكِّر فيها.. أحسُّ أنَّ سارونا، تتألَّم.. بانقضاء اليوم يكون قد مات أمل آخر.. لا أعرف.. صرت أتخيَّل أشياء كثيرة.. حتَّى أمّي تقول إنَّني أُحمِّل الأمر أكثر ممَّا يحتمل.. وإنّني لم أعد أهتمّ بنفسي.. ولكن من يدري. وحدي أنا أمشي والنار بين ضلوعي. ووحدي أتجرَّع المرّ طوال يومي.. حتَّى إنِّي في بعض اللّحظات أحسُّ بأنَّني ميِّتة.. من يوم رحلت أنت.. وهذه الصغيرة سارونا.. تبقى صامتة.. تخيفني.. أخاف منها وعليها حينما تبتعد وحزنها، وأتساءل.. مَنْ الذي علّمها أن تحزن كلّ هذا الحزن..

ـ ماما!

ـ نعم!

ـ تحمَّمت..

ـ نعيماً..

في كلِّ ليلة، يتسرَّب إليها حزنها.. تبدأ تسألني، ولا أعرف بماذا أردُّ عليها.. تموت الكلمات على شفتيَّ، وشيئاً فشيئاً ينتقل حزنها إليّ، يزيدني حزناً على حزن، وأغصّ بعبرتي، أتلعثم، وأسكت، أظلّ أنظر إليها، وتنساب دموعي..

ـ سارونا.

ـ نعم.

ـ تعالي لأمشط لكِ!!

ـ...

ـ اجلسي هنا.

ـ ماما!

ـ نعم؟!

ـ شعري حلو؟!

ـ أكيد حبيبتي.

ـ مثل شعركِ؟!

ـ أجمل منه.

ـ ولكن شعركِ طويل!!

ـ عندما تصيرين بعمري، سيصبح شعركِ أطول..

ـ...

أصغر أشيائنا صارت تذكّرني بكَ.. وأبسط الأشياء صارت تُبكيني، وصرت أتحجّج بأتفه الأسباب لأبكي.. لم يعد يفرحني شيء، أخذت فرحي معك، ولم يعد يلفت نظري، يستوقفني، شيء..

عندما أعزم على شراء أيّ غرض لي، أظلُّ أتساءل.. لمن أشتري هذا؟! ولمن سألبسه؟! ومن غيرك يستحقّ مني كلّ عمري؟! منذ فترة أعجبني فستان.. بقيت أمرّ من أمام المحلّ لأكثر من أسبوعين. كنت أتمنّى أن يُباع، أمرّ فلا أجده. وأخيراً دخلت.. تفحّصته. دخلت غرفة القياس لأقيسه. وقفت أنظر لنفسي بالمرآة، وفجأة رأيتك تطلّ من عيني دمعة، ومسرعة خلعته عنيّ، وغادرت المحل.. أصغر وأكبر مشاريعي مؤجّل لحين عودتك.. حتّى صبغ أظافري..

ـ ماما! أستطيع أن أشاهد الڤيديو؟!

ـ وموعد النوم يا حبيبتي!

ـ قليلاً؟!

ـ حسناً.. هيّا انهضي!!

ـ بوسه..

ـ ادخلي فراشكِ، وسأُدير الڤيديو..

ـ ...

ـ هيّا!

أين تُراك الآن؟! وكيف هو حالك؟! في بعض الأوقات أتساءل: ماذا لو لم تعد؟! وأضيع والإجابة.. إلى متى سأبقى أنتظرك؟! وإلى

متى أبقى أعيش على الذكرى؟ ولكن.. كيف لي أن أبدأ من جديد؟! كيف..

- ماما!

- نعم.

- تصبحين على خير!

- وأنتِ من أهل الخير حبيبتي!!

* * *

كريه صوته

- تفضَّل معنا!

أين اختفت الساعة؟! كانت هنا قبل قليل..

- ابقي مكانكِ! بعض الأسئلة وسيرجع..

ولم تعد.. كنتَ أنتَ الذي يوقِّت الساعة كلّ ليلة..

- هيَّا! انهض!

وسحبك الشرطيُّ من كتفك.. كم وقفنا أنا وأنت هنا أمام المرآة!!

- بعض الأسئلة ويرجع..

انقضت سنة، ولم تنته الأسئلة والعذاب، ولم ترجع.. الساعة.. يجب أن أجهِّزها لصباح الغد.. دائماً كنت تغافلني وتبخِّر ثيابنا في الخزانة. لم تزل ثيابك الحبيبة مكانها.. استخرجها، اشتمّها، وأعيدها ثانية لمكانها، وكأس الماء. كنت تضعه هنا قرب رأسك،

أقـول لك: لا داعي، وتقـول: ربّما تعـطشين في الليـل.. سنة وأنـا عطشى، وأين أنتَ يا حبيبي؟!..

بارد الفراش بدونك.. كلّ ليلة أتمدَّد لوحدي، أعود طفلة صغيرة أضاعت أهلها.. تجلدني وحدتي، وأبكي، ولكن..

ـ أين هي الساعة؟!

الكويت ـ ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ـ ١٩٩١

المقابلة

. . أفكار كثيرة تناوبت عليك. تردّدت كثيراً قبل أن تحضر، ولكن (. . قاتل الله الحاجة. .) لم يبقَ أمامك إلاَّ أن تقصده. منذ مدَّة طويلة لم تره، انحلَّت علاقتكما، بحكم وضعه الجديد. صارت له علاقاته الخاصَّة، وأصبح له أصدقاؤه الجدد، وبقيت أنت أنت. مصطفى أبو نعيم. مرَّ العمر وابيضَّ رأسك، وتقوَّس ظهرك. وأبداً ظلَّت راحة البال سراباً يلوح بعيداً ويختفي.

فاجأك هدوء المكان وبرودته. ارتبكت. أحسست بأنَّ اضطرابكَ يزيد. (. . لا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله. .) رددت لنفسك متململاً. وصلك صوت آلة كاتبة ينبعث من إحدى الغرف. لا تعلم لماذا ضايقك الهدوء الذي يشمل المكان. خُيّل إليك أنَّك تسمع ضربات قلبك، وتساءلت. . (إلا يوجد موظَّفون هنا؟!)

استمرّ صبيّ الشاي والقهوة يتقدَّمك. قرأت على الأبواب: شؤون الموظَّفين، المحاسبة، الصندوق، المشتريات، الشؤون الإداريّة، غرفة الاجتماعات. . فجأة توقَّف الصبي ملتفتاً إليك، يخاطبك بأدب:

ـ تفضَّل! هذا هو مكتب السيِّد المدير!

لا تدري لماذا أحسست بنفسك تحجم عن التقدُّم. سحبت قدميك، خطوت تدخل. قابلتك فتاة رقيقة جالسة خلف مكتب لامع:

ـ مساء الخير. .

أفلتَّ تحيّيها. بدا لكَ صوتكَ غريباً عنكَ. كلُّ شيء في الغرفة مرتَّب بدقَّة:

ـ مساء النور..

ردَّت الفتاة تحيّتك بلطف واضح، وصوتك يسأل:

ـ السيِّد أبو خالد موجود؟!

حاولت أن يخرج صوتك واثقاً..

ـ نعم.. مَنْ حضرتك؟!

ـ مصطفى..

وقبل أن تعلِّق هي بأيِّ شيء، أضفتَ أنتَ:

ـ أبو نعيم..

ـ أهلاً وسهلاً.. تفضَّل، بماذا أستطيع مساعدتك؟!

تردَّدت لبرهة، وبعدها قلت:

ـ أودُّ مقابلة أبي خالد..

ـ أعندك موعد سابق معه؟!

أحسست كأنَّها تحاصرك بأسئلتها. هززت رأسكَ، أفلتَّ:

ـ كلاَّ..

ومهزوزاً خرج صوتك:

ـ اخبريه باسمي، وسيعرفني..

ـ حاضر.. تفضَّل استرح..

أشارت لك بيدها. تهالكت على مقعد بجانبك. يعزُّ عليكَ أن تقف هذا الموقف، ولكن.. (ماذا لو ردّني؟!.. كيف سيستقبلني.. هل سيذكر أيَّامنا.. معاً قدمنا أنا وهو إلى هنا..) دوَّنت الفتاة شيئاً

ما على ورقة صغيرة، وبعدها هبَّت واقفة. (.. سبحان مغيّر الأحوال!!) أسررت لنفسك. نقرت هي بهدوء على باب الغرفة المجاورة، ودون أن تنتظر الإجابة دخلت..

(.. الله يقطع الحاجة.. منذ مدّة انقطع ما بيني وبينه.. لم يُعد يجمع بيننا شيء..) أصخت السمع: صوت موسيقى تنبعث من مكانٍ ما. (.. خلص.. لا مجال للتراجع الآن.. سأُقابله.. ثمَّ ماذا يعني مبلغ تافه لشخص بمثل حالته..) تلفَّتَّ تتفحَّص أثاث الغرفة، بينما ظلّت الموسيقى تسبح في جوّ الغرفة بهدوء..

* * *

وصلك اليوم الإنذار الأخير (.. لذا فإن إدارة المدرسة ستضطرّ آسفة لفصل ولديك أعلاه، ما لم تقم بتسديد الأقساط المستحقَّة عليكم، خلال مدّة أقصاها ثلاثة أيَّام..) وذيَّلوا الكتاب بعبارة (.. وإدارة المدرسة، إذ تعتبر كتابها هذا بمثابة الإنذار النهائي، فإنَّها لتأمل بتعاونكم معها..)

ـ انتظر قليلاً..

انتشلك صوت الفتاة. أشرت لها برأسك (.. حاضر..) دون أن تقولها. جلست هي في مكانها. تناولت دفتراً كبيراً كان أمامها، وانهمكت تقرأ وتدوِّن شيئاً ما فيه.. (.. كأنَّها خرجت متضايقة.. ربَّما تفوَّه بشيء ما أمامها.. لم يعد أبو نعيم صديقه الآن.. أبو نعيم الفقير.. ماذا لو أخبرتها بكلِّ شيء..)

رفعت نظرك لوجهها. فتاة في العشرينات. رقيقة (.. أهمّ ميِّزة في السكرتيرة أن تكون جميلة، وبعدها يأتي كلّ شيء..) دار بخلدك

تخبرها (. . بُنيَّتي!! سيِّدك هذا صديقي. . صديق طفولتي. . ابن قريتي. . معاً قدمنا إلى هنا، منذ ما يزيد على الثلاثين سنة. . عرف هو كيف يدبِّر نفسه. . عمِل عند أحد الأثرياء. . صبيّ مراسل. . لاكت علاقتهما الألسن، وبقدر ما كان يزداد الكلام عليه كان يصعد سيِّدكِ. . بُنيَّتي. . المراسل صار كاتباً، ثمَّ سكرتيراً خاصَّاً، فمديراً للمكتب، ولا يعلم أحد كيف حصل على الجنسيَّة. .)

أشعلت سيجارة. أخذت نَفَساً عميقاً. انتبهت للفتاة، فخاطبتها:

ـ يضايقكِ. .

ـ أبداً. .

قالت بودّ. وصوتك:

ـ شكراً. .

ـ . . .

* * *

الفتاة تهبُّ واقفة:

ـ أهلاً وسهلاً. .

تلتفت أنتَ. يدخل رجل يلبس الدشداشة والغترة والعقال. حذاؤه اللامع، عطره، نظراته، خطواته، وصوته:

ـ موجود؟!

ـ نعم. .

بخفَّة رأيت الفتاة تخرج من خلف مكتبها متهلِّلة الوجه. تنقر على

الباب تنحني قليلاً أمام الرجل، وتفتح له الباب هامسة:
- تفضّل!!

ظلّت نظراتك معلّقة عليها، ولحظة عادت لمكانها ارتفع صوتها تخاطبك:

- هو على موعدٍ سابقٍ معه..

بدا لكَ وجهها خالياً من أيِّ تعبير. هززت رأسك لها مؤكّداً كلامها. (.. على قدر المكانة يأتي الاحترام، وعلى قدر المال تأتي الحظوة.. كيف تراه جمع كلّ هذا؟!.. قضيت العمر كله أكدّ وأشقى.. البيت، والعيال، والأهل هناك..) وصلك صوت قهقهة تصدر من داخل الغرفة. سرحت. عزَّ عليك تجاهلك، دار بخلدك تنهض تغادر المكان، ولكن: كتاب المدرسة، والطرد الذي ينتظر ولديك. (وحده المال يعزّ ويذلّ..) حدَّثت نفسك، وبصوت مسموع قلت:

- استغفر الله العظيم..

* * *

- زارتنا البركة..

- ...

انفتح الباب فجأة. ظهر الرجل، وظهر أبو خالد يتأخّره. بدا لكَ واضحاً تملُّقه للرجل. تعرفه تماماً، صديقك القديم. نفس التكشيره الذليلة. هبَّت الفتاة واقفة. وحدك بقيت جالساً (.. يلعن

أبـوهم. .) تبادلت والفتـاة النظرات، أحسست بهـا وكأنّها تستحثّـك على النهوض، وتجاهلتها.

تبع أبو خالد الرجل. غـابا لفـترة، بعدهـا عاد أبـو خالـد عابسـاً (. . ربّما ضايقه أن أراه في موقف الضعيف. .)

ـ أهلاً مصطفى. .

بادرك قبل أن يصلك:

ـ أهلاً أبو خالد. .

مددت يدك لتصافحه. أعطاك يداً باردة، وصوته:

ـ تفضّل. .

قالها ودلف قبلك لغرفة مكتبه. .

تبعته متهيِّباً. استقرَّ خلف مكتبه الفخم. أثاث المكتب، وستائره، وكلّ شيء بهرك.

ـ أهلاً وسهلاً أبو نعيم. .

انتشلك صوته، نظرت إليه فأكمل.

ـ كيف أحوال الأولاد والأهل؟!

ـ الحمد لله. .

طفرت منك جملتك. ظلَّ ينظر إليك، فقلت:

ـ كلُّهم بخير. .

أحسست بـأنَّك غـريب عنه، وأنَّ شيئـاً ما يـربط لسانـك، مضى عليك يومان وأنتَ تفكِّر في هذه اللَّحظة، وها أنتَ تتيه:

ـ نعم..

فاجأكَ صبيّ الشاي والقهوة يقف بقربك، وصوت أبي خالد:

ـ ماذا تودُّ أن تشرب؟!

ـ لا شيء..

ـ شاي.. قهوة.. بارد..

كرَّر أبو خالد يعزم عليك، وردّ صوتك واثقاً:

ـ لا شيء..

الكويت ٢٤ ـ تشرين الثاني (نوفمبر) ـ ١٩٨٣

(١) فتحت الإشارة

كان أبو عجاج جالساً عندما شاهد رئيس القسم قادماً، نفض عنه ضيقه، وطول انتظاره، وهبَّ واقفاً. «.. هذا هو. ها قد وصل أخيراً..» أسرَّ لنفسه، وبطريقة آليّة اعتادها راح يسجل. «.. يا ربّ. يا ميّسر الأمور، يا الله.. وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم..»

دخل رئيس القسم إلى غرفة مكتبه، دون أن يلتفت إليه، فدلف وراءه.

ما إن استوى الأوّل خلف مكتبه حتّى بادره رافعاً يده اليمنى بحيث استقرَّت سبَّابته بشكل مائل قرب صدغه:

ـ صبَّحك الله بالخير يا بو عصام!

رفع رئيس القسم نظره إليه. استغرب منه أن يخاطبه بطريقته، وكما لو كان بينهما معرفة سابقة.

ـ أهلاً.

ردَّ أبو عصام باقتضاب. لم ترقه هيئة أبي عجاج، ولا طريقة دخوله عليه، ولا تحيَّته العسكريّة:

ـ أنا المراسل الجديد طال عمرك!

ـ نعم؟!

صدرت عن أبي عصام، كأنَّه أراد التأكُّد ممَّا يسمع. بينما راح يتفرَّس بأبي عجاج. وقد زاد انزعاجه منه:

ـ المراسل الجديد.

حاول أبو عصام إخفاء ردّة فعله، والاحتفاظ بهدوئه ريثما يتأكّد من الموضوع:

- مَنْ الذي بعثك إلى هنا؟!

- الإدارة.

- أيّ إدارة؟

- المدير.

ضايق أبا عصام الأسلوب الذي يردّ به عليه أبو عجاج:

- أيّ مدير؟!

سأل أبو عصام وقد بدأ ينفد صبره:

- العمّ بو سعود طال عمره وعمرك.

كان أبو عجاج رجلاً مسنّاً، ولكنّه يبدو محتفظاً بقوّته. جسمه مليء ولهذا يبدو أقرب إلى القصر منه للطول. لحيته صغيرة مخضّبة بالحنّاء. نظراته عميقة يصعب التنبُّؤ بما خلفها. شاربه خفيف شائب محفوف. وأكثر ما يلفت النظر في وجهه تلك الأسنان الصفراء المتناثرة بلا نظام، وحركة لسانه الذي لا يسكن. مع تلك المسبحة التي لا تفارق يده، والتي لا تنفكّ حبّاتها تتحرّك بهدوء بين أصابعه، دونما صوت:

- انتظر في الخارج.

أشار أبو عصام بيده لأبي عجاج. تحرّك الآخر بخطوات بطيئة، وقبل أن يخرج استوقفه أبو عصام:

- ما اسمك؟!

- نزّال عجاج..

هزّ أبو عصام رأسه، فأضاف الرجل:

ـ أبو عجاج طال عمرك.

ـ حسناً.

انطلق صوت أبي عصام بنفاد صبر، يستعجل أبا عجاج الخروج.

* * *

ـ نعم هو المراسل الجديد.

جاء ردّ الإدارة على أبي عصام. فاستغرب، وتساءل «.. كيف تمّ ذلك؟!»

وضع سمّاعة التليفون، ودمدم مستخفّاً يحدّث نفسه «أبو عجاج!!» سرح لبرهة، وبعدها دفع بكرسيّه الدوّار إلى الخلف و«.. سأقابل بو سعود.. القسم بحاجة لمندوب ومراسل في نفس الوقت. وبعد كلّ كتبي، وطلباتي المتكرّرة، يأتي أبو بطيخ!»

فتح باب غرفته، ففاجأه أبو عجاج يهبُّ في وجهه واقفاً، يرفع يده بتحيّته العسكريّة ذاتها. ويخاطبه أبو عصام. أشار إليه:

ـ اجلس! انتظر!

* * *

بيّن أبو عصام لمدير الإدارة أنّ القسم بحاجة ماسّة لمندوب ومراسل في شخص موظّف واحد، وأنّ هذا الرجل المسنّ، وبهيئته وأسنانه المنثرة، ومسبحته، لا يصلح، ولن يستطيع القيام بهذا العمل. ولكن مدير الإدارة قاطعه:

ـ دع عنكَ هيئته وأسنانه!

ـ ولكن..

- الرجل سيعمل مراسلاً وليس عارض أزياء.

ظلَّ أبو عصام ينظر لمدير الإدارة، وصوت الأخير:

- لنعطِه فرصته..

وينهي المدير المقابلة. خاطب سكرتيرته:

- هيًّا! جهّزي ملفّ الاجتماع!

* * *

مرَّ أسبوعان. كان أبو عجاج خلالهما متواجداً طوال الوقت، وقائماً على خدمة الجميع. ولكن شيئاً ما بدأ يلفت نظر أبي عصام.

شابٌّ خمّن لأوَّل وهلة بأنَّه هندي أو باكستاني، أضحى يظهر بصحبة أبي عجاج أينما ذهب، يجلسان طوال الوقت يتهامسان، بينما تلوح على أبي عجاج ملامح الجدّ وهو يحاول إيصال فكرة ما للشابّ. وإذا ما أرسل أبا عجاج إلى أيَّة جهة، تبعه الآخر كظلِّه.

في أحد الأيَّام طلب أبو عصام أبا عجَّاج. دخل عليه بخطواته الوئيدة، وتحيَّته العسكريّة. استفسر منه عن الشابّ الذي يبقى طوال الوقت جالساً إلى جواره. اضطرب أبو عجاج قليلاً، بعدها خرجت كلماته:

- يساعدني، طال عمرك.

هزَّ أبو عصام رأسه، رافعاً حاجبيه و:

- هذا لا يصحّ.

- لماذا طال عمرك؟!

قالها أبو عجاج بينما كان ينظر في عينيْ أبي عصام مباشرة. ظلَّ

لبرهة على وضعهما هذا. بينما كان أبو عصام يحدِّث نفسه «.. ابن الكلب، عجوز الحيلة.. يتصنَّع الجهل والطيبة أمامي..»

ـ لا أُريد لهذا الشاب أن يحضر معك غداً!

ـ اسمه إقبال طال عمرك «مسلم باكستاني».

ـ هيَّا تفضَّل!!

أشار أبو عصام لأبي عجاج ناحية الباب. ظلَّت نظرات أبي عجاج باردة. ومن بعيد خرج صوته:

ـ حاضر طال عمرك.

ببرودة رفع أبو عجاج يده اليمنى حتَّى لامست سبَّابته صدغه. أدَّى تحيَّته العسكريَّة و:

ـ السلام عليكم.

ولحظة انطلق الباب خلفه، أفلت أبو عصام متضايقاً:

ـ إلى جهنَّم!

* * *

في صباح اليوم التالي، وبينما أبو عصام يهمّ بدخول غرفة مكتبه، شاهد أبا عجاج وبجانبه إقبال جالسيْن كعادتهما يتبادلان الحديث. «.. ابن الكلب!» أفلت يحدِّث نفسه. «عجوز جهنَّم..» ومن مكانه أشار لأبي عجاج، ودخل منفعلاً لغرفته.

على طريقته دخل أبو عجاج بهدوء و:

ـ صبَّحك الله بالخير يا طويل العمر.

أدَّى تحيَّته العسكريّة ووقف وكأنَّ شيئاً لم يكن:

- لماذا أحضرت إقبال معك؟!
- يساعدني طال عمرك!
- ليغادر حالاً!

ارتفع محتدّاً صوت أبي عصام.

- لا تزعج نفسك يا طويل العمر. لن يكون إلاّ ما تُريد..
- تفضّل اصرفه فوراً.

ظلّ أبو عجاج لبرهة في مكانه، وكأنّه يتعمّد أن يؤجّج غضب أبي عصام. بينما ارتفع صراخ الآخر:

- هيّا! تحرّك! ألا تسمع؟!
- حاضر.. السلام عليكم.

فحّ بكلمته، واستدار يخرج متباطئاً..

* * *

بعد هذه الحادثة بيومين، وبينما كان أبو عصام جالساً عند نايف موظّف الصادر، إذا بإقبال يدخل حاملاً كيساً. قدّمه لنايف، وانسحب دون أن يرفع بصره بوجه أبي عصام:

- ما هذا؟!

نبس أبو عصام يسأل:

- سندويش.

أجاب نايف، فارتسمت الدهشة على وجه أبي عصام، ولكن نايف أكمل:

- يعجبني أبو عجاج! ملعون.. استقدم إقبال على كفالته من

الباكستان، يعطيه خمسين ديناراً في الشهر، ويقبض هو خمسمائة دينار من الوزارة..

ظلَّ أبو عصام ودهشته، وصوت نايف:

ـ ولكن إقبال طيِّب.. طوال اليوم يخدم الجميع..

انتبه نايف إلى سكوت أبي عصام، فسكت هو بدوره، وبعد برهة أفلت يخاطب أبا عصام مادًّا يده بالكيس:

ـ تفضَّل! أتأكل معي؟!

* * *

في نهاية الدوام، وبينما أبو عصام متَّجهٌ لسيَّارته في الموقف، شاهد إقبال واقفاً ينتظر. قبل أن يخرج من الموقف، تقابل مع أبي عجاج داخلاً يقود سيَّارته التاكسي:

ـ ابن الحرام!!

قالها وأكمل بسيَّارته.

كانت إشارة الموقف الضوئيّة حمراء عندما حاذى أبو عجَّاج بسيّارته أبي عصام، وراح يؤشر له. أنزل أبو عصام زجاج نافذته فرفع أبو عجاج يده بتحيَّته العسكريّة مبتسماً، وصوته:

ـ مسّاك الله بالخير يا طويل العمر..

لحظتها فتحت الإشارة..

الكويت ٢٤ ـ تشرين الأوَّل (اكتوبر) ـ ١٩٩١

(٢) منتشيا يتحرّك

أعلنت الشركة عن حاجتها لصبي شاي وقهوة، وبعد ثلاثة أيّام تجمّع لديها ملفّ يحوي طلبات راغبي العمل. خلافاً لجميع الطلبات التي كانت لعمالة عربيّة أو آسيويّة، استوقف المديرة الإداريّة: الآنسة فاتن، ابنة صاحب الشركة، طلب السيِّد نزّال عجاج.. راحت تدقّق في صورته، غترته وعقاله، ولحيته الصغيرة، ونظراته الحادّة.

طلبت سكرتيرتها. ناولتها طلب العمل و:

- اتّصلي بصاحب هذا الطلب، وليحضر لمقابلتي في الخامسة مساء..

- حاضر!

* * *

كانت الآنسة فاتن تتكلّم في التلفون مع إحدى صديقاتها عندما استأذنتها السكرتيرة الدخول و:

- تفضّلي!

ارتفع صوت فاتن. دخلت السكرتيرة و:

- الرجل صاحب الطلب موجود..

نظرت فاتن للساعة المذهّبة التي أمامها و:

- لينتظر ريثما أطلبه..

* * *

انفتح الباب. ظهر أبو عجاج. للوهلة الأولى تراءى لفاتن أنَّه قصير:

ـ مسّاكِ الله بالخير يا بنت الأجاويد..

قال جملته مركِّزاً نظره على وجهها، رافعاً يده اليمنى بحيث استقرَّت أصابعه المضمومة وبشكل مائل قرب صدغه..

ـ أهلاً وسهلاً

لفت نظر فاتن أسنانه الصفراء المتناثرة، وطريقة كلامه، وللحظة حضَّرت فيها ضحكتها أشارت له بالتقدُّم و:

ـ تفضَّل!

ـ ما خاب من شاهد هذا الوجه الطيِّب..

قال جملته قبل أن يجلس، فارتسمت ابتسامة فاتن على وجهها وأفلتت:

ـ شكراً..

جلس قبالتها هادئاً، بينما راح يعبث بحبَّات مسبحته بصمت. بدا لها واثقاً من نفسه، لحيته المحنَّاة، وحركة لسانه التي لا تهدأ، وما إن التقت عيناهما حتى بادرها:

ـ حيَّا الله وجه الخير..

حبست ضحكة تلحّ عليها، وأجابته:

ـ أهلاً وسهلاً.. ما اسمك حجِّي؟!

ـ أبو عجاج طال عمركِ.

ـ أتعرف طبيعة العمل المطلوب؟!

- نعم يا طويلة العمر..

عادت تنظر إليه، فعادت ضحكتها تنقر عليها، وصوته:

- المطلوب عامل شاي وقهوة..

- نعم..

أشارت برأسها و:

- والراتب..

قالت كلمتها، فأحسست أن رغبتها في الضحك قد انحسرت..

- كما تشائين يا بنت الأكابر.

- عندك أسرة؟!

- ثلاث نساء..

- ماذا؟!

شهقت بضحكتها هي، فأضاف بزهوّ هو:

- نعم يا بنتي «ثلاث» الثالثة تزوَّجتها قبل شهر..

- طيِّب حجِّي «سنعطيك راتباً شهرياً قدره مائة وخمسون ديناراً».

ظلَّ ينظر إليها. مرَّت فترة صمت بينهما، وصوته:

- بل مئتان يا طويلة العمر!!

رفعت نظرها إليه، فأكمل:

- للقديمات مائة، وللجديدة مائة..

انفجرت تضحك. مدَّت يدها لتتناول ورقة كلينكس، تجفِّف دموعها و:

- طيِّب حجِّي..

وتخاطب سكرتيرتها. ارتفع صوتها:

ـ سهير..

ـ نعم.

أجابت السكرتيرة عبر جهاز التلفون الداخليّ:

ـ تعالي لو سمحتِ..

ـ حاضر..

دخلت السكرتيرة، فناولتها فاتن الطلب و:

ـ اعملوا للحجّي أبي عجاج أمر تعيين..

والتفتت تكلّم أبا عجّاج:

ـ متى تبدأ العمل؟!

ـ الآن طال عمركِ..

وثانية عادت تخاطب السكرتيرة:

ـ ابتداء من الغد..

ـ تفضّل!!

أشارت له أن يتبع السكرتيرة. نهض من مقعده. رفع لها يده بتحيّته العسكريّة، مركّزاً عينيه في عينيها و:

ـ مشكوره، طال عمركِ

ـ ...

* * *

بعد مرور أكثر من أسبوع على دوام أبي عجاج في الشركة لاحظت فاتن أنَّ هناك شابّاً يبدو عليه أنّه هندي بدأ يظهر بالقرب

من أبي عجاج دائماً. . طلبت السكرتيرة لتستفسر منها، وصوت الأخيرة:

ـ لا أعلم. . أشاهدهما معاً طوال اليوم، وفي نهاية الدوام يغادران معاً. .

بعد فترة أخبرت السكرتيرة، الآنسة فاتن أنَّ أبا عجاج لم يعد يُداوم، وأنَّ الشابَّ الهنديّ هو الذي يعمل كلّ شيء. .

ـ ما اسمه؟

ـ راجو!

ظلَّت فاتن ساكتة، فأضافت السكرتيرة:

ـ عفواً آنسة فاتن. . الشابّ الهنديّ أنظف من أبي عجاج.

هزّت الآنسة فاتن رأسها، وصوت السكرتيرة:

ـ كما أنَّه يتكلَّم الإنجليزيّة. .

ولم تعلِّق فاتن. .

* * *

الثامنة والنصف صباحاً. الآنسة فاتن تصل إلى الشركة. تدخل فيقابلها أبو عجاج في الممرّ:

ـ صبّحكِ الله بالخير يا طويلة العمر. .

صبّحها رافعاً يده اليمنى بتحيّته العسكريّة ذاتها و:

ـ أهلاً. . صباح النور. .

ردَّت عليه، وأكملت طريقها لمكتبها. بعد مرور فترة دخل عليها أبو عجاج حاملاً الصينيّة وعليها كوب النسكافّيه. اقترب بحذر من

المكتب، وضع الكوب، واستدار ليخرج، وصوت فاتن:

ـ منذ مدّة لا نراك..

ـ أنا تحت أمركِ يا طويلة العمر..

رفع بصره إليها فرآها تنظر إليه فأضاف وجلاً:

ـ هل قصّر راجو بأيّ شيء؟!

ـ كلاّ..

ردَّت فاتن. بقي هو متسمِّراً في مكانه، وصوت فاتن مهادناً:

ـ راجو ولد جيِّد..

جملة فاتن تدخل السرور إلى قلبه. يتحرَّك. يهمّ أن يخرج وصوتها مرّة ثانية:

ـ مشكور..

ومنتشياً يتحرَّك..

الكويت ـ ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ـ ١٩٩١

(٣) رويدا أكمل طريقه

ـ صبّحك الله بالخير يا طويل العمر.

رفع أبو عجاج يده بتحيّته العسكريّة، يحيّي مدير الإدارة، وظلّ واقفاً في مكانه:

ـ تفضّل بو عجّاج..

وصله صوت أبي سعود. خطا أبو عجاج بوجل. «.. ماذا تراه يريد منّي؟! اللّهم اجعله خيراً.. ليس وراء هذا الوجه إلاّ المصائب..» أسرّ أبو عجاج لنفسه. بينما راح يختلس النظر لأبي سعود الذي بدا مشغولاً بترتيب بعض الأوراق على مكتبه و:

ـ حيّا الله بو عجّاج.

انطلق صوت أبي سعود يحيّي أبا عجّاج دون أن يرفع بصره إليه:

ـ تحيا وتدوم يا طويل العمر.

«.. يُحيّيني بهذه الطريقة يا الله سترك..» رنّ التلفون، وصوت أبي سعود:

ـ آلو!

ـ . . .

ـ أهلاً.. أهلاً.. يا مرحبا.

ـ . . .

ـ بخير..

رأى أبـو عجاج كيف أنَّ مـلامح أبي سعـود قد تهلَّلت. «مـع مَنْ يتكلَّم؟! . . لا بدَّ أن يكون مسؤولاً مثله . .»

ـ نعم.

ـ . . .

ـ حاضر طال عمرك.

ـ . . .

ـ تأمر . .

ـ . . .

ـ الليلة سيكون معي.

«شغل سهرات . .»

ـ حاضر . .

ـ . . .

ـ الله يسلّمك.

أنهى أبو سعود المكالمة فعادت لأبي عجاج هواجسه:

ـ أبو عجاج . .

قالها أبو سعود، وعاد ينشغل بأوراقه.

وحدها حبَّات مسبحة أبي عجاج كانت تتحرَّك بهدوء. اعتـدل أبو سعود في جلسته و:

ـ المدام تحتاج لسائق خاصّ لها يا أبا عجاج . .

ظلَّ أبو عجاج ينظر في وجهه:

- نريد سائقاً ممتازاً.. وأميناً..

لم يعرف أبو عجاج بماذا عليه أن يردّ. وصوت أبي سعود:

- لماذا أنت ساكت؟!

- حاضر يا طويل العمر..

- سيكون اسمك ضمن كشوف العلاوات القادمة..

- مشكور يا طويل العمر.

- تأخذه رأساً إلى البيت، ويبقى عندنا..

صار كلّ شيء واضحاً الآن لأبي عجاج. «.. يريد سائق لزوجته على حسابي.. ابن الكلب.. يغضّ النظر عن عدم حضوري إلى هنا، وأنا أرتّب له سائقاً لزوجته..»

- متى سيكون السائق عندنا؟!

ارتفع صوت أبي سعود.

- حاضر طال عمرك.

- اليوم العصر.

- إن شاء الله.

- حسناً.. لديَّ اجتماع الآن..

أبو عجاج ينهض. يرفع يده بتحيَّته العسكريّة و:

- السلام عليكم..

- هلا أبو عجاج..

تحرَّك أبو عجاج صوب الباب، وصوت أبي سعود:

- لا تنسَ.. نريده أميناً..

ـ حاضر طال عمرك . .

وبهدوء أكمل أبو عجاج طريقه . .

الكويت ـ ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ـ ١٩٩١

(٤) بسلامة أبي عجاج

الثانية ظهراً. ركب آخر المجموعة. أغلق الباب خلفه، فانطلق أبو عجاج بسيَّارته التاكسي. أعظم وإقبال جلسا بجواره، بينما جلس كلٌّ من راجو ونواز وخان، في المقعد الخلفيّ.. (.. إقبال خمسون، وأعظم خمسون هذه مائة.. راجو ونواز.. مائة ثانية، وخان خمسون.. يصبح المجموع مئتين وخمسين ديناراً.. يجب أن أُرسل أنطون لبيت ابن الكلب:

ـ المدام تحتاج لسائق خاصّ.. يُلعن أبوك على أبي المدام».

كان أبو عجاج يحدِّث نفسه، بينما تعالت الرطانة تملأ جوّ السيَّارة المنطلقة..

* * *

توقَّف أبو عجاج بسيَّارته قبالة المطعم الباكستاني، كعادته كلّ يوم:

ـ هيَّا..

التفت يخاطب راجو..

ـ ...

هزَّ راجو رأسه غير مكترثٍ، بينما راح يتفاهم وزملاءه بخصوص غدائهم..

ـ هيَّا يا راجو!!

كرَّر أبو عجاج بانزعاج. فتح راجو الباب وترجَّل، فعاد أبو عجاج لحسابه.. (.. إقبال وأعظم.. مائة.. راجو ونواز وخان..

مـائة وَخمسـون هذه مئتـان وخمسـون.. وأنـطون خمسـون.. يصبح المجمـوع ثلاثـمائة دينـار.. سبعمائـة وخمسون من الـوزارة، وثلاثـمائة وخمسون، ومئتان من الشركة.. ألف وثلاثمائة.. مـائة وخمسـون من البنك، وثلاثـمائة.. بـل لنقل مئتـان من السيَّارة.. يصبـح المجموع الكلِّي.. ألف وثلاثمائة، ومائة وخمسـ..)

أغلق راجو الباب خلفـه فقطع عـلى أبي عجاج حسـابه.. التفت أبو عجَّاج إلى حيث يجلس راجو، كما لو أنَّه أراد التأكُّد منه. أبصره، فأدار المحرِّك. انطلقت السيَّارة، وثانية عادت الرطانة مخلوطة برائحـة الأكل..

* * *

(.. أدفـع لهم مرتَّبـات.. ثلاثـمائة دينـار.. أستلم.. سبعـمائـة وخمسين، وثلاثمائة وخمسين.. ألف ومائة، مائتين.. ألف وثلاثـمائة، ومائة وخمسين من البنك.. ألف وأربعمائة وخمسين..)

وحده أبو عجاج كان منشغلاً في حساباته، بينما انهمك الجميـع في الأكـل وسط رطانـة مـرحـة. ضحـك نـواز عـالـياً فكـاد أن يغصّ بلقمته. اهتزَّ يسعل. عمَّ الضحك الجميع. انتبه أبو عجـاج فصرخ بهم:

- بهدوء يا كلاب.

لم يلقَ ردَّاً من أحـد، فعـاد لحسـابـه.. (.. ألف وأربعـمائـة وخمسـون.. حيوانـات أنسوني إلى أين وصلت.. ابـدأ من الأوَّل.. ثلاثمائة لهؤلاء الزفت.. سبعمائة وخمسون، وثلاثمائة وخمسون.. ألف

ومائة، ومائتان.. ألف وثلاثمائة.. ومائة وخمسون من البنك.. ألف وأربعمائة وخمسون، ومائتان من السيَّارة.. المجموع الكلِّي.. ألف وستمائة وخمسون ديناراً.. نخسر منها ثلاثمائة دينار.. يتبقَّى.. ألف وثلاثمائة وخمسون ديناراً شهرياً..) أطلق زفرة كما لو أنَّ حملاً ثقيلاً يرزح على صدره (.. ثلاثمائة دينار أصرف عليهم كلّ شهر.. عساهم بالماحي..) التفت إليهم. ما زالوا يأكلون، وبينه وبين نفسه ردَّد (.. كلوا عساه بالسمِّ الهاري..)، وغير مبال أكمل طريقه..

الكويت ٣٠ ـ تشرين الثاني (نوفمبر) ـ ١٩٨٣

زمن آت...

صوت أوّل:

ليس أجمل من الحبّ: حبْ كما تشاء، فما نقصِ إنسان من حبّ. قُلْ عليَّ ما شئت: بصراحة أنا أحبّ وطني. هل في هذا شيٍ؟! أعشقه على طريقتي الخاصّة. يدلُّ عليّ. وأزيد تعلُّقاً به. قُلْ عني ما شئت: ما عاد شيء يهمّني. أحبّه هذا الضياء، وأينما أوجّه كلّي، فثمّة وجهك الحبيب يا وطني..

* * *

صوت ثانٍ:

السادسة والنصف صباحاً. بإحدى يديها احتضنت يد طفلها مُساعد، وباليد الأخرى شدَّت من عباءتها السوداء على رأسها. توقَّفاً عند باب المدرسة. تركت يده، نزلت إلى الأرض. صار رأسها بمستوى وجهه. أشرق وجهها بابتسامتها. اطمأنّت على أن نهاية قميصه، داخل بنطلونه. تناولت رأسه الصغير بين راحتيها، قبَّلته، ويرشح بالحبّ صوتها قالت:

ـ كُنْ شاطراً يا مساعد!

حنى رأسه واعداً، وانسحب من بين يديها بخطواته الصغيرة. ظلَّت تلاحقه بنظراتها، وقبل أن يدخل باب المدرسة، التفت ملوِّحاً لها بيده، وبقلبها ردَّدت:

ـ الله يحفظك!

عربة فخمة تقف بمحاذاة أمّ ماعد. مسرعاً ينزل السائق، يفتح الباب الخلفيّ. طفل سمين يترجّل، يسحب جسمه ورجليه، ينحني السائق يحمل الحقيبة للطفل، وعند الباب يتسلّم الطفل الحقيبة بضيق، ويدخل إلى المدرسة. يعود السائق للسيّارة، وتنتصب أم مساعد تعود ماشية لبيتها..

* * *

صوت أوّل:

خفت عليه ومنه، ومثل الأشياء الممنوعة حملته على قلبي: وطني، لم أشبع من حبّه، ولم يشبعني هو. بقيت جائعاً، وظلّ نائياً. بقربي ومُحرَّمٌ عليّ. أزداد حبّاً، ويتيه هو دلالاً عليّ، وعندما أفكّر بنفسي وقصّتي معه أبكي، وأقصد أصدقائي الفقراء. أتخفّف من همّي عندهم. تدور الأحاديث، وتدور الأحاديث، وفي نهاية الجلسة نتوادع وكُلّنا حزانى..

* * *

صوت ثانٍ:

مساعد والطفل السمين في الفصل. طفلان من فصل آخر يطلّان برأسيهما من الباب. ينتبه مساعد. يدخل الطفلان. مستنفراً يتابعهما مساعد. أحد الطفلين ينحني يفتح أحد أدراج الفصل. يتبادلان مع مساعد النظرات. الطفل ينتقل إلى درج آخر. ينهض مساعد. ينظر للسمين. فيتجاهله هذا. يد الطفل تستخرج قلماً من داخل الدرج. يلتفت، فيرى مساعد وصوته:

ـ لا تسرق.

ـ لا دخل لك.

مساعد يقترب من الطفلين:

ـ أُرجع القلم..

ـ ...

الطفلان يتبادلان النظرات. يتحرَّكان. مساعد يمسك بيد الطفل. يحاول أن يخلِّصها الطفل. ينهض السمين. مساعد يتعارك مع الطفلين. يترك السمين الفصل. يلحق به بعد برهة الطفلان، والقلم مكانه..

* * *

صوت أوَّل:

أنا أطيق حزني على نفسي، ولكنِّي أتقطَّع عندما أَراك أنتَ حزيناً يا وطني. أُقدِّم روحي لترابك. ولكنّه حزنك أكبر منك ومني. وأظلُّ عاشقاً وحبيبة..

* * *

صوت ثانٍ:

مُدرِّس التاريخ يدخل الفصل مسرعاً، ينهض الأطفال، وصوته مضطرب:

ـ جلوس.. جلوس.. هيَّا نظِّموا مقاعدكم جيِّداً..

رتِّبوا كلَّ شيء، سيزورنا ضيوف..

يبدأ الأطفال ترتيب مقاعدهم. المدرِّس يتفحَّصهم، ومسترجعاً تعليمات الناظر (.. يجب أن يبدو كلُّ شيء نظيفاً ومرتَّباً.. الضيوف أجانب.. يجب أن يروا كلَّ شيء جميلاً..) يرتفع صوت المدرِّس.

ـ مساعد..

ينتبه مساعد.

ـ وأنتَ يا رضا.. تعالوا إلى هُنا.

بوجل يتحرَّك الطفلان، يدنوان من المدرِّس، وصوته:

ـ اذهبا إلى الملعب!

شيء ما اخترق مساعد. ظلَّت نظراته معلَّقة بوجه المدرِّس:

ـ هيَّا تحرَّكا..

حثَّهما المدرِّس، تحرَّك الطفلان. وفي الملعب أحسَّ مساعد بأنَّه يريد أن يبكي..

* * *

صوت أوَّل:

لحكمةٍ خلق الله آدم من تراب. وحتَّى النخاع منزرع حبَّك فيَّ يا وطني. فهل تراني منزرع أنا فيك؟!.

* * *

صوت ثانٍ:

لوحده مساعد في الفصل. طفل من فصل آخر يدخل. يتابعه مساعد. يبدأ الطفل بفتح الأدراج. ينهض مساعد، يعترض الطفل.

يتدافعان. يسقط الطفل، يزحف إلى الباب. يخرج. ويخرج مساعد على أثره..

* * *

الأصوات:

وطني! سأبقى أعشقك، فأنتَ الزَّمن الآتي..

الكويت ١٨ ـ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨١

الرحلة

كلّ شيء يضجُّ بالحركة. وحدك يثقلك انكسارك. وقفت تبحث عن طاولة منعزلة. «أجلس لوحدي» مزدحمة كافتيريا المطار. تجرّ خطواتك، تهالكت على أحد المقاعد. «أُف..»

بأصابعك المرتجفة تفقّدت أشياءك. أعدت التأكُّد من جواز سفرك، تذكرتك، ونقودك. «إلى أن نموت سنبقى نتأكّد من أوراقنا!» فاجأك النادل بابتسامته يقف أمامك. يستفسرك، يدوِّن طلبك. ومتعباً خرج صوتك:

- شاي لو سمحت!

- أيّ شيء آخر؟!

- شكراً.

حنى رأسه بابتسامته ذاتها، وغادرك بخفّة. ظلّت نظراتك معلّقة به. شيّعته حتّى اختفى، وكأنّك تحسده على حيويّته.

دائماً كانت المطارات دهاليز تأخذك من سجن إلى آخر. تنقلك من ضفّة لأخرى. ولكنّ الضفاف، كلّ الضفاف، ظلّت أبداً ضفّة واحدة.

«ليس هناك يا صديقي أرضٌ جديدة ولا بحرٌ جديد
ستتبعك المدينة».

كافافي. طوال عمرك وأنتَ تردِّد قصيدته.

«كيف حطّمت حياتك في كلّ الأرض

بمجرَّد أن ضيّعت نفسك هنا في هذا المكان».

قبل قليل أراد أسعد أن يبقى معكَ، ولحين إقلاع طائرتك. ولكنَّك شكرته ورجوته أن يذهب لعمله.

منذ البارحة، وهذه الغصَّة اللّعينة لا تفارقك. تعثَّرت بها أكثر من مرّة. حاصرت كلماتك. ولحظة ودَّعت أسعد تحاشيت تنظر في عينيه. خفت تنكسر بك، ولا تتمالك نفسك، فتفيض بها، واستحييت تبكي بحضرته. بقيت متماسكاً. ويشدُّ على يدك أفلتّ:

ـ أتمنَّى لك حياة جديدة!

دمعتك تبلّل خدّك. رفعت نظَّارتك، وبمنديلك داريت وجهك. تمسح دموعك. «ليس عيباً أن نبكي! ثمّ إنّها كثيرة الأشياء التي تستحقّ أن نبكي عليها!»

كيف تراها تنبت بذهننا الأشياء؟! ها هو واضحاً يحضرك مشهدك ورفاقك الآن. يعود يتشكَّل أمامك، وكأنّه حدث بالأمس. «كان أحد صباحات كانون الأوَّل القارسة. وكنتم ترتجفون تفترشون ساحة السجن. كانت برودة الأرض الرطبة تتخلَّل عظامكم. نقلوكم ليلاً في القطار. وكنتم تتحاورون بنظراتكم. وككلّ مرّة رحت تبحث بصمت عن أصدقاء الرحلة الجديدة..»

ـ أرجو الانتباه! تعلن الخطوط الجويّة العربيّة عن إقلاع رحلتها..

لا تعلم تماماً بماذا يذكِّرك صوت فتاة النداء. عادت تكرِّر بإنجليزيّة طليقة تعلن عن إقلاع الرحلة.

بخجل تَعَذّرك عالمك العربي. طأطأ رأسه. كلاكما وهِنٌ وقد هدّه

التعب. نذرت عمرك له، وأبداً ظلَّ حلمك الكبير وها أنتما لا تجدان مأوى تتواريان فيه، وقد تبعثر حلمكما:

- تفضَّل.

انحنى النادل يضع كأس الشاي أمامك على الطاولة. وعندما رفعت عينيك إليه وجدت الابتسامة ذاتها ما زالت تلتصق بوجهه. حنيت رأسك أنت أيضاً تشكره. ابتعد هو. فتبيَّنت شاباً وفتاة وقد جلسا بجوارك.

«أصرَّ الأصدقاء على أن يسهروا عندك. يودِّعوك، يحتفلوا بك ليلة البارحة. أثَّر بك موقفهم، وتحت إلحاحهم وافقت. ولكن شيئاً ما حضر بقدومهم. وظلَّ طوال السهرة يحوم حولكم، يطلّ من عيونكم، يملأ المكان. يلوِّن أصواتكم. ينطق بكلماتكم. يضغط على صدوركم، وتخرجونه حرقة مع دُخان سجائركم. في أتعس لحظاتكم لم تكونوا مُحبطين إلى هذا الحدّ..»

- أرجو الانتباه! تعلن الخطوط الجويّة العربيّة..

انتشلك صوت فتاة النداء. لمحت طفلين بملابس جديدة، عند طرف الكافتيريا، بينما كان أحدهما يركض بفرح ظاهر في أثر الآخر. وعندما التفتّ نحو الشابّ وفتاته وجدتهما قد قرَّبا رأسيهما أكثر، وانخرطا بحديث هامس.

«قرابة الثانية والنصف صباحاً ودَّعك الأصدقاء. عندما أوصدت خلفهم الباب ألفيت نفسك ووحدتك. كانت بك رغبة كبيرة لأن تبكي. أحسست بكلِّ شيء يضغط عليك. هاجت بك لوعتك.

تذكّرت عمرك، وكيف أنّك ورفاقك زرعتم الأماني، وحصدتم الألم. من بين أصابعكم تسرّبت أيّامكم الغالية، تبخّرت. انتشرت دُخاناً. ولكن أين تراها الحقيقة؟!

طوال الليل لم تنم. بقيت مسهداً، تملؤك حسرتك. وفي السادسة صباحاً استمعت لنشرة الأخبار. نهضت بعدها. اغتسلت. واكتفيت صنعت لنفسك كأساً من الشاي. ولا تدري كيف، ولا من أين عادت تصعد بك غصّتك؟! اندسّت تختبىء ما بين دمعك وانتحابك. وظلّت معلّقة هناك. تنتقل ونظراتك.

عندما حزمت حقائبك وحضر أسعد لتوصيلك للمطار ألقيت نظرة الوداع على شقّتك. استخلصت روحك. انتزعتها. فجاءت تُخضّبها عبرتك، وخرجتما..»

* * *

كلاكما وحيد. كلاكما مُطارد. كلاكما مُثخن بجراحه. وكلاكما مخنوق بعبرته. أنت وعالمك العربيّ. ضحّيت بعمرك لأجله، وها هو، وبعد كلّ هذا العمر، يعود منكسراً لا يقوى على رفع هامته:

ـ تسمح؟!

وصلك صوت شابّ يستأذنك بأدب مشاركتك طاولتك:

ـ تفضّل!

تهلّل وجهك. رحّبت به. أعجبك يشاركك كأسك. عيناك تبحثان عن النادل. عطر الشابّ يغمرك. أشرت للنادل. وبعد برهة:

- نعم ؟!

- شاي لو سمحت!

- حاضر.

وتخاطب الشابّ قُلت:

- أتشرب شيئاً؟!

أحسست كما لو أنّ عرضك قد فاجأه. تدفع الدنيا بصدرك عندما كنت بعمره. و:

- شكراً.

ردَّ هو. وصوتك يشي برغبتك:

- أيّ شيء!

أعدت عليه، وبودٍّ قال يخاطب النادل:

- «كوفي» لو سمحت!

ومسرعاً انفلت الآخر.

* * *

«صباح اليوم، وأنتَ في السيَّارة مع أسعد في طريقك إلى المطار، أحسست بها الأشياء. الطرقات، إشارات المرور، وحشة الساحات، ألوان السيَّارات، واجهات المحلَّات، أسماء الطرق، أشجار الرصيف، أسطح البنايات، جِبال الغسيل، حُفر الشوارع، ورائحة الهواء. كأنَّها تضعف لحظة نودِّعها. يرتسم عليها الحزن. تصبح وادعة. تشفّ. يسقط عنها زيفها وقسوتها. تلوح متألِّلة. تخرج كلّ ذكرياتنا وإيَّاها. تنشرها على وجوهنا، وفي الفضاء. تودِّعنا..»

ـ أرجو الانتباه! تعلن الخطوط الجوية الأجنبية..

يخفق قلبك. ها هي رحلتك. غصّتك تكبر. تطغى على كلّ شيء. «كنتم مُكدَّسين في القطار. وكان يهدر بكم وسط ذاك الليل الحالك..»

ـ عن قيام رحلتها..

يدك تتحسَّس جواز سفرك. «وحدها تلك الأضواء كانت تتراءى لكم متناثرة. ووحدها كانت تبعث الدفء في أوصالكم. بيوت الأحبّة..»

ـ المتّجه إلى..

تتلفَّت حولك. أحسست كأنَّ صوت فتاة النداء يطردك. الكافتيريا بدت لك مزدحمة أكثر من أيّة لحظة سابقة. الشابّ الذي يشاركك الطاولة بدأ يحتسي قهوته:

ـ إنهاء معاملاتهم استعداداً للسفر.

لوحدك أنت. تتّكئ على مسانـد المقعد تحاول أن تنهض. تحدِّث نفسك «كم تراه سيطول السفر؟!»

الكويت ١٦ ـ آب (أغسطس) ـ ١٩٩١

مرسلة

.. أخيراً تعب هذا القلب، ولم يقوَ على الاستمرار أكثر. ثلاثة وأربعون عاماً وهو يخفق، وها هو يستسلم في النهاية. كلُّ ما أذكر أنني كنتُ في غرفة مكتبي، وبعدها لا أذكر شيئاً..

عندما انتبهت كان أكثر من دكتور يحيط بسريري. رأيتهم كالظلال. ملابس بيضاء ووجوه تطلّ عليّ من علٍ. تكلّموا كثيراً. كان يصلني كلامهم مائعاً متداخلاً، وأخيراً صحوت على يد الدكتور وصوته:

ـ سلامات..

ـ ...

رأيت ديمة وعلي وأخي سامي.

ـ سلامات بوعلي..

ـ سلامات بابا ..

نبس سامي وعلي، بينما أحسست بديمة تداري وجهها عنّي..

ـ الحمدلله على السلامة..

عاد الدكتور يخاطبني. بقيت أنظر في وجهه. تراءى لي كل ما في الغرفة أبيض: ضوء النهار، الجدران، الستائر، سمّاعة الطبيب، شاشة التلفزيون، كيس المغذّي، رداء الممرِّضة، الأضواء اللّاصقة، أغطية السرير، صوت الدكتور وابتسامته، واستدارة ساعته. قال يحذّرني:

ـ . . . أَرِحْ نفسك قليلاً . . . تجنَّب كثرة التفكير والقلق . .

سكت لبرهة و:

ـ لماذا كلّ هذا الهمّ؟! لم تزل شباب . .

ظلَّت نظراتي المنطفئة تتابع كلماته، ووجه ديمة الباكي، فأضاف وجزء من مزاح يخالط صوته:

ـ ولا مانع . . قليلٌ من الحبّ!

ـ . . .

ابتسامة بائسة طفت على وجهي، وسكتّ . .

في الأسبوع الفائت كنت في غرفة مكتبي . ظلَّت والدتي تثرثر كعادتها كلّ يوم مع خالتي ـ لا أعرف من أين تجيئان بالكلام!! ـ وفجأة انقطع صوت أمّي، ليخرج منكسراً، تغشيه اللوعة:

ـ لم يزل يحبّها . . حطّمت حياته . .

أُمّي! وحدي من حطَّم كلّ شيء . صحيح أنَّ كلَّ شيء قد انتهى بيننا، وأنَّ كلاً منّا قد ذهب في طريقه، ولكني أنا . . أنا لم أستطع نسيانها . بقيت أطارد طيفها، وطوال هذه السنوات، ظلَّت تخفق بقلبي . .

قبل زواجنا رأيت فيها الفتاة الحلم التي انتظرتها طوال عمري . هِمت بها كما لم أهم بمخلوق . علاقة رائعة جمعتنا، وبعد مضيّ سنتين، اقتنعت أنا بأنَّ كلَّ ما فيها ـ حبيبتي ـ يروقني، وأنَّها وحدها تصلح تماماً لأن تكون زوجة لي، وتعاهدنا أنا وهي أن نعيش أحبَّة أبد العمر، وأنَّنا لن نفترق مهما حصل، وبكت هي بلوعة، قالت:

- أنتحر أنا إذا لم أتزوَّج منك. .

٢٥/٥ كان يوم زواجنا، قبل ثماني عشرة سنة. خمس سنوات عشناها معاً، بحلوها ومرِّها، ومثل أي زوجين جديدين عشنا أيَّامنا الأولى زاهية، ملأى بكلِّ الأماني الكبيرة. اختلفنا كثيراً، وتزاعلنا أحبَّة، وتراضينا. طوال الخمس سنوات بقيت أستوقفها في كلِّ لحظة. أردتها أن تكون كما أريد، ولم تستطع هي، وتمنَّت هي أن أكون كما حلمت طوال عمرها. ولم أَجئ كذلك. لا هي أصبحت كما أريدها، ولا أنا صرت كما تحلم، وبدأنا نفترق، وبدأ ما بيننا يفتر، وشيئاً فشيئاً كبر الشرخ بيننا، وفي أحد المساءات وبينما الصمت يلفّنا، نبست هي وجِلة:

- صار يجب أن نفترق. .

لم أستوعب جملتها للوهلة الأولى، وتُبعد عينيها عنيِّ. أفلتت:

- . . تطلّقني. .

- . . .

لحظتها أدركت أنّ الحبَّ وحده أعجز بكثير من أن يحفظ علاقة رجل بامرأة، وقلت لها:

- حبيبتي. . اطلبي أيّ شيء. . لنتفاهم! لنبدأ من جديد!

وقتها بدأت أراجع كلّ شيء. أحسست بأنَّ ذلك السور الذي أحيطها به: ابتداء بطريقة حديثها، وضحكتها، ومكياجها، وشكل تسريحتها، وعلاقتها بأهلها وأقربائها، وانتهاءً بمشيتها، ولون حذائها، وحمّالة صدرها. . وحده ذلك الحبّ خنقها، وقلت لها:

ـ . . لنفكّر بالأمر! لنعط لأنفسنا فرصة أخيرة!

أذكر أنّه كان يوم سبت، حينما عدت من عملي ولم أجدها. أخذت ديمة وعلي وتركت البيت. ولحظتها تعلّقتُ بها أكثر. أحسست بأنّني أضعتها من بين يديَّ، وتلفّتُّ حولي وحيداً، ورجوتها، قُلت لها:

ـ . . سنبقى عرايا أنا وديمة وعلي بدونكِ. .

قالت:

ـ لا أستطيع . . لم أعد أطيق البقاء هنا. .

وبكت. ألف انكسرت. توسّلت إليّ، قالت:

ـ أقبّل حذاءك طلّقني. .

طال خلافنا، وأخيراً لم يبقَ أمامي إلاّ الطلاق، وطلّقت. .

هجرني نومي، عشّشت بي غصّتي، وأقنعت نفسي، قلت: ستعود. قلت: مستحيل ينتهي كل شيء بيننا. قلت: زوبعة وتمرّ، وأمّلت نفسي. منّيتها. قلت: سترجع وسأكون شخصاً آخر. سترجع وسنرتّب كلّ شيء. وانتظرت، وقلت: ستأتي، وانتظرت، وقلت: سأشعل روحي متى رجعت، وبكيت. اعتزلت الناس. خجلتُ أقابلهم. وكتمت خبر طلاقي عن أقرب أصدقائي. قلت: تعود، ويمرّ كلّ شيء، وانتظرت، وانتظرت، وفي أحد المساءات رنّ التلفون. فزّ قلبي لحظة سمعت صوتكِ الحبيب. قلتِ:

ـ كيف أستطيع أن أرى طفليّ؟!

كان صوتكِ موحشاً، وكذبت نفسي. قلتُ لكِ بحبّ:

- كما تشاءين..

وسكّيناً خرج صوتكِ:

- أنا تزوّجت..

- ...

كتمت شهقة أرادت أن تطفر منيِّ، ولِأنهيَ المكالمة قلتُ لكِ:

- مع السلامة..

خلص.. تجربة فاشلة وانتهت. مثل آلاف التجارب الفاشلة في كلّ مكان. لملمت نفسي، ولم أسمح لأحد أن يتطفّل على علاقتنا. كنتُ أقرأ في عيون الجميع رغبة محرقة لأن يتكلّموا، يردّدوا كلماتهم المشروخة الكريهة، ولم أعطهم الفرصة. عزَّ عليّ أن تُمسّ حبيبتي، وعزَّ عليَّ أن يُمسّ عمري..

الفرص الكبيرة تأتي مرّة واحدة، وأبداً لا تتكرَّر. كلّ شيء انتهى الآن، ومن هو ذاك العبقري الذي لم يخسر، ولم يتألّم ويندم؟! ما دمنا نعيش سنخسر.. أنتِ والفرح ويومي تسرَّبتم من بين أصابعي، ولم أنتبه. كنتُ جاهلاً وضيّعتكِ. ربّما كُنتِ فرصة عمري، ولم أعرف كيف أمسك بها، فتبخَّرت. طارت. خلص انتهى كلّ شيء.

الدكتور يقول: لا تفكّر كثيراً.. لا تقلق.. أَرِحْ نفسك.. دكتور! منذ ثماني عشرة سنة وأنا ليل نهار تأكلني حسرتي. تنهش بقلبي. ثماني عشرة سنة قضيتها نادماً، أندب حظّي. ووحيداً عشت. جداراً مهدّماً، ومقبرة فقراء موحشة.

نساء الدنيا كلهنَّ لن أُبدلهنّ بحبيبتي.. فتاة مادّيّة.. أنثى.. كان

رحيق الأزهـار يختبئ في شفتيهـا، وكـانت إغفـاءة الـورود في عينيهـا الصغيرتين. وكان ملمس العافيـة في أصابعهـا، وكان زعفـران الله في شعرها، وكـان عسل الجنّـة في ريقها. تبتسم فتهمي الـدنيا زهـرات سـوسن وياسمـين. تسهو فتبحـر السفن في عينيها. تضحـك فيشرّع الـربّ أبواب الجنّـة للفقـراء. تغضب فتشـعّ السـماء بـأقـواس قـزح راعشـة. تبكي ـ وما أكـثر ما تبكي ـ فتنسـاب بدمـوعها الحبيبـة كـل آهات الأطفال اليتامى..

هكذا انتهى كلّ شيء. وجدت نفسي مع ديمة وعليّ. نـذرت عمري لهما، واستعصى عليّ أن تهـزّني امرأة. بقيتِ أنتِ اللّعنـة المقدَّسـة التي تسكنني. تُحرِّمني على كـلّ النسـاء. حـاولت أكـثر من مـرّة أن أرتبط بـامرأة. ولم أستـطع. ظلّ طيفـكِ يشدّني بـألف مرسـاة ومـرسـاة. لم تستطع امرأة انتشالي، وأبداً بقيت مشدوداً إليكِ حبيبتي.. مرساة..

أنا وديمة وعـلّاوي وأنتِ عشنا أحبَّـة كأحسن مـا يكون. صحيح أنّـكِ كُنتِ بعيـدة عنّـا، ولكنّـكِ وفي كـلّ اللحـظات كُنتِ معنـا.. حبيبة، وأمّاً وأُمنية..

ـ بابا..

ـ حبيبتي ديمة..

ـ كيف حالك؟!

ـ بخير.. تعالي! اقتربي منّي..

ـ . . .

ـ اقتربي أكثر! أريد أن أُقبِّلكِ.

ـ . . .

- تبكين!!

- . . .

- لماذا؟!

- ديومة حبيبتي . . ما بكِ؟!

- . . ماما تودّ رؤيتك . .

- . . .

- بابا . . بابا . .

- بابا . .

- نعم . .

- أنا علي . .

- . . بابا . .

- ديمة! وعلي! وسامي! ولكن أين . . . ؟!

الكويت - ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) - ١٩٩١

بيت العزّاب

. . الكـويت. شـارع الخليـج العـربي. الاتّجـاه شرقـاً. الحـاضر يتداخل في المـاضي. مبانٍ عصـريّة. بيت عـربي قديم. السكّـان من الوافدين. . العزّاب. أعمالهم تختلف باختلافهم. .

* * *

. . غرفة صغيرة تكاد تكون مربّعة. جدرانها من الخشب المقوّى. سقفها يتكوّن من عوارض خشبيّة، مغـطّاة بقطع من الصفيـح. ثلمة مرآة مثبتة على الجدار. أسـلاك كهربـائيّة مهـترئة تتـدلّى من السقف، تخترق الجدار إلى الغرفة الخشبيّة المجاورة. صورة ملوّنة لفتـاة شقراء، وقـد كشفت عن صدرهـا العاري. عـلى لوح البـاب من الـداخـل، لُصقت آية قرآنيّة صغيرة.

عبد الزهرى منشغل يلفّ كوفيّته عـلى رأسه، بينـما راح يئنّ بلحن حـزين. ينحني يـرفـع زبيـلاً كبيـراً من خـوص النخيـل. يخـرج من غـرفته. يُعلّق الـزبيل بمؤخّـرة رأسه. يـده تُدخِـل القفـل في الـرزّة، وصوت أخيه يستوقفه:

ـ عبِد. .

يلتفت، فيكمل الأخ بصوت يغشاه التعب:

ـ لا تغلق الباب!

يـده تترك القفـل. يتنحّى قليلاً، فـاسحاً الـطريق لأخيـه حسـين ليدخل، وصوته:

- سيمرّ عليك سبتي.

- متى؟!

- العصر..

ويُضيف مشيراً إلى صرَّة من الملابس:

- سيأخذ ملابس العيد ليوصلها للأهل..

وصوت حسين متململاً:

- أريد أن أنام.. أنا جدّ تعِب..

- ...

- أقفل عليّ الباب من الخارج!

- وماذا بشأن سبتي؟!

- سينصرف حالما يرى القفل.

عبد الزهري باستسلام:

- ما دامت رغبتك.

يدخل حسين. عبد الزهرى يشبك القفل في الرزّة. يضغط عليه يغلقه. يُعدّل من وضع زبيله، ويسير..

* * *

.. أحدهم يركض لبقالة غلوم. يدفع الباب، ومقطوع الأنفاس يخاطب غلوم:

- تلفون..

غلوم يردّ ببرودة وضيق، وعربيّة مكسَّرة:

- خراب..

ـ هناك حريق يا زفت..

ـ حريق؟!

يـردِّد بفزع. يسرع لإخـراج التلفون من الـداخل، وقبـل أن يمـدَّ رأسه للخارج متطلِّعاً، يدير الآخر قرص التليفون..

* * *

.. صـوت سيَّارة الإطفـاء يتعـالى. السيَّـارات تحـاول الابتعـاد. الإشارة الضوئيّة حمراء. الصوت يتعالى. سيَّارتان تـركبان الـرصيف. سيَّارة الإطفاء تتحرَّك وصوتها. أنظار المارّة تشيِّعها. أحدهم يقف إلى جانب الطريق يلوِّح بيديه صائحاً:

ـ من هنا.. من هنا..

* * *

.. النار تحاصر مدخل بيت العزَّاب. رجال الإطفاء يتراكضـون. ألسنة النار ترتفع من الغرفتين المجاورتين للمدخل. خليط من الناس يتجمهر حول المكـان. أصوات هلعـة متداخلة تـرتفع من الـداخل. سيَّـارات الإطفاء تتـوافد. خـراطيم الماء في كـلّ الاتِّجاهـات. أعـداد الناس تتزايد. نار المدخل تمنع الدخول والخروج من البيت..

* * *

.. صرخات الاستغاثة تتعالى. المكان يزدحم بسيَّـارات الإطفاء. خراطيم الماء تُسلّط على غرفتيْ المدخل. عدّة سلالم إطفاء تركَّب عـلى أنحـاء مختلفة من البيت. أحـدهم يرمي فـراشه إلى الخـارج. يـدوِّي صوت انفجار. أحد الواقفين لجاره:

- ربّما كانت قنينة غاز!

غرفتا المدخل تهويان. أحد رجال الإطفاء يرمي خرطوم الماء، متراجعاً للخلف، خوفاً من إحدى العوارض الخشبيّة التي كادت أن تحطّم رأسه. حسين يصرخ من داخل غرفته. أحد المتجمهرين لصديقه:

- انظر.. إنّها سميرة!

الآخر يرفع رأسه. سميرة وأمّها تطلاّن على الحريق من فوق سطح منزلهما..

* * *

.. أحد رجال الإطفاء يسقط في الوحل. شابٌّ من الواقفين ينفجر يضحك بصوتٍ عال. الناس ما زالوا يتوافدون على المكان. أصوات سيّارات الإطفاء، والإسعاف، والنّجدة، والشرطة، والنّاس. تبتلع استغاثة حسين. رجال الإطفاء فوق سطح البيت، يحاولون محاصرة النّار..

الطابق العلويّ من البيت، مستعمرة من الغرف الخشبيّة، سهلة الاشتعال. ألسنة اللهب تصل إلى الغرفة المجاورة لغرفة حسين. الدخان ينبعث من كلّ أرجاء البيت. النار تبلغ غرفة حسين. أحدهم لزميله:

- إنّها بعباءة وقميص نوم!! بنت الحرام ما أحلاها!!.

الآخر يلتفت، وبحرقة يُفلت:

ـ يا نار. .

* * *

. . الدخان يرتفع من غرف البيت المتفحِّمة. سقف غرفة حسين مشتعل. مختنقاً يستغيث هو بيأس. النار والدخان يُطبقان عليه. سيول الماء تملأ حوش البيت. غرفة حسين تهوي. رجل مسنٌّ يصل. أحدهم مخبراً منْ حوله:

ـ . . العمّ بدر مالك البيت!

* * *

. . العمّ بدر يحاول الصعود لسطح البيت. مجموعة من رجال الإطفاء يحاولون دفع إحدى الغرف الخشبيّة لرميها من فوق. صوته يصرخ بهم:

ـ توقَّفوا!!

الغرفة تبدأ تتحرَّك. تهتزّ. العمّ بدر ممسكاً بأحدهم:

ـ توقَّفوا. .

الآخر لا يردّ. العمّ بدر يولول:

ـ حرام عليكم. . حرام يا ناس. .

الغرفة تنقلب من فوق ـ ترتطم بالأرض مثيرة دويّاً وعاصفة من الغبار. تتناثر محتوياتها. مجموعة من الأطفال يسرعون نحوها. أحدهم يصرخ، راكضاً نحو المحتويات:

ـ راديو صغير. .

ينحني يأخذه، وينفلت..

* * *

.. النار لم تزل تشتعل. رجال الإطفاء يتجمَّعون فوق السطح. احدهم يُنقَل لسيَّارة إسعاف، على أثر إصابته بشظيّة مشتعلة. الغرف الثلاث المجاورة للمدخل تهوي. تتصاعد موجة من الغبار. ينكشف حوش البيت. يصبح بالإمكان دخوله، مروراً فوق الأنقاض. موجة من أطفال، صبيان، شبَّان، رجال يدخلون. الدخان يرتفع من كلِّ مكان، أحد السكَّان يضع رأسه بين ركبتيه، ينتحب نادباً حظّه، العمّ بدر يتنقَّل في أرجاء البيت. يتوقَّف لبرهة أمام الرجل وبحنق يُفلت:

- .. كلّ هذا بسببكم يا أولاد الكلب..

الأدخنة السوداء تكتنف فضاء البيت وما حوله. صوت سيَّارة شرطة يتعالى. أكثر من طفل يركض لاستشكاف الأمر. السيَّارة تقف. رجل برتبة مقدَّم يترجَّل بتأنٍّ. يصافح أحد مسؤولي الإطفاء، وبحرارة يسلِّم على العمّ بدر الذي اعترض طريقه:

- ما سبب الحريق؟!

يرتفع صوت المقدَّم، موجِّهاً كلامه لمسؤول الإطفاء:

- يبدو أنه تماس كهربائيّ..

وملتفتاً للعمّ بدر يُكمل:

- أغلب غرف البيت من الخشب!

- هذا غير صحيح..

يدخل العمّ بدر منزعجاً، وموجّهاً كلامه للمقدَّم يضيف:

ـ غرف محدودة فقط..

المقدَّم يهزّ رأسه مؤيِّداً، ومخاطباً مسؤول الإطفاء يقول بثقة:

ـ التحقيق سيكشف كلّ شيء..

* * *

.. النار تخمد في أكثر من مكان، وصوت المقدَّم يسأل:

ـ هل هناك خسائر بشريّة؟!

ـ عثرنا على جثّتين متفحّمتين..

يُجيب مسؤول الإطفاء، وصوت العمّ بدر يقول متأسِّفاً:

ـ أجلهم واصل.. الله يرحمنا ويرحمهم..

وموجّهاً كلامه للمقدَّم يُضيف:

ـ سبحان الحيّ الذي لا يموت..

ـ سبحانه وتعالى..

يردِّد المقدَّم، ويكمل طريقه متأفِّفاً بين أشلاء الغرف..

* * *

.. الدخان يشكِّل سحابة سوداء فوق المنطقة المحيطة بالبيت. عبد الزهرى وهو يحمل زبيله يرى الدخان. يقف على رؤوس أصابعه، رافعاً رأسه، ومن غير أن يتأكّد يركض و:

ـ يا ويلي!

* * *

. . عبد الزهرى يتخبَّط بالأوحال أمام البيت. يتوقَّف عند أنقاض غرفته. الإحساس بالفجيعة يتبدَّى عليه. نظراته زائغة. تمرُّ ثوانٍ قبل أن يلتفت إلى أقرب الواقفين منه ليسأل بصوت يرتجف من سماع الإجابة:

- هل رأيتم أخي؟!

- . . .

الكويت ٢٩ - آذار (مارس) - ١٩٧٨

الموت مجّانا...

ـ . . لا تجعل منها قضيّة . . دبِّر أمرهم كيفما اتفق . .

ـ ولكن . .

ـ لو سمحت . . يجب أن أذهب الآن . . مع السلامة . .

ولم ينتظر ردّك ليُنهي رئيس المهندسين المكالمة. وجدت نفسك وحيرتك. كان لزاماً عليك أن تُدبِّر مأوى يمضي فيه العمّال الجدد ليلتهم.

أحسست بالضيق. بدا لك موحشاً مكتبك. المخطّطات المعماريّة، والإنشائيّة، والخدمات، وواجهات مبنى المستقبل الملصقة على الجدار الذي يقابلك. وذلك الصمت الذي يلفّ كلّ شيء. لو كنت تعلم هذا لما تأخّرت. كان عليك أن تنهي بعض الحسابات، ولهذا بقيت لوحدك بعد أن غادر الجميع الموقع، وفجأة دخل عليك سائق الموقع سعيد:

ـ مساء الخير باشمهندس . .

ـ أهلاً . .

رفعت رأسك إليه، وكعادته بدا مبتسماً:

ـ نعم؟!

ـ أحضرت العمّال الجدد من المطار . .

لم تفهم، بقيت تنظر في وجهه، فأضاف بنظرته المتسامحة وصوته:

ـ العمّال الباكستانيّين . .

سرحت لبرهة. أشرت له قلت:

ـ استرح..

وكأنّه فهم حيرتك فأضاف بهدوء:

ـ باشمهندس.. هؤلاء العمّال الجدد الذين تعاقدت الشركة على إحضارهم للمشروع..

أردت أن تقول له: وما دخلي أنا ولكن صوتك خرج:

ـ وماذا يجب أن أعمل لهم ؟!

وتاهت نظرته، ولم يجب.

رئيس المهندسين قبل قليل قال: دبّر أمرهم كيفما اتفق!! خرجت إلى الموقع. رأيتهم متكوّمين حول الباص الذي أحضرهم من المطار. الغروب. أكثر الأوقات التي تكرهها. تحسّ بأنّ كلّ شيء يصبح باهتاً، وأنّ جميع عناصر الطبيعة تسير صامتة في موكب جنازة الشمس.

حاصرتك نظرات العمّال. لا تعلم بماذا عليك أن تخبرهم، ولا كيف تتصرّف معهم. اكتفيت بأن أشرت إليهم أن يصعدوا إلى داخل الباص. فلقد أحسست بلسعة برد تتسرّب إليك، وأنّك بدأت تجوع.

أكملت طريقك تتجوّل في الموقع. كلّ شيء بدا ساكناً تماماً. اقتربت من مخزن الموقع الكبير. توقّفت لبرهة. لمعت بذهنك فكرة، ومسرعاً عدت إلى باص العمّال تبحث عن سعيد..

* * *

. . حين رجعت إلى الموقع بعد ساعتين، ومعك بطّانيات وأغطية للعمّال، وجدتهم قد حوّلوا المخزن بقيادة سعيد إلى مهجع كبير. أخرجوا كل ما فيه من مواد بناء، ونجارة، وبقايا مواد أخرى. نظّفوا الجدران والسقف، وكنّسوا الأرضيّة. وعلى جانبيه رصّوا أسرّتهم.

وزّعت عليهم فرشهم. وأغطيتهم. تزاحموا حولك، تناولوها بفرح طفولي، وقبل أن تغادر الموقع أوصيت سعيداً أن يحضّر لهم وجبة العشاء. ثمّ ابتسمت لهم مفلتاً:

ـ تصبحون على خير. .

ـ وأنتَ من أهله يا باشمهندس.

ردَّ عليك سعيد، ومسرعاً قصدت سيّارتك فلقد كنت جائعاً. .

* * *

على غير عادته رئيس المهندسين وصل مبكّراً إلى الموقع. بادلت وإيّاه:

ـ صباح الخير. .

بدا هادئاً. تحدّثتما عن أمور العمل في المشروع. أثنى متحفّظاً على حسن تصرّفك، فيما يخصّ إسكان العمّال الجدد في المخزن، وعندما أخبرته أنّك قرأت عقد العمّال، وأنّه ينصّ على ضرورة توفير السكن اللائق والمواصلات لهم، ردَّ لامبالياً:

ـ هذا هو السكن اللائق لهم. .

بقيت تنظر إليه، فأضاف بصلف:

- في بلدهم لا يجدون المأوى..
- ولكن..
- منْ لا يعجبه، نعيده مع أوَّل طائرة..
- ...

ابتلعت ضيقك، وبخبث بادرك يضحك:
- غالٍ سعر الأغطية التي اشتريتها لهم!

لم تعلِّق، فأكمل بالضحكة الكريهة ذاتها:
- أرجو أن لا تشغل بالك بهم..

ساد الصمت بينكما. بعدها طلب منك إطلاعه على البرنامج المعدّ لسير عمل المشروع. دقَّق معك في أكثر من بند، ينهض مفلتاً:
- جيِّد..
- ...

* * *

بعد انقضاء شهر على وصول العمَّال لفت انتباهك لوحة صغيرة كُتب عليها بخطّ عربي ركيك: سكن العمَّال الباكستانيّين. ابتسمت وأنت تقرأها، وحينما دخلت المخزن غمرتك غبطة خفيّة. بدا نظيفاً، مرتَّباً تفوح منه رائحة طيِّبة، وفوق الأسرّة انتشرت صور الأحبَّة، والوطن..

* * *

.. ظلَّ رئيس المهندسين منفعلاً طوال الاجتماع. شدَّد على أنَّ المشروع دخل المرحلة الحرجة، وبالتالي صار لا بدَّ من زيادة ساعات

العمل، وذلك عن طريق تشغيل العمّال ساعات عمل إضافيّة.
ويرشح بالغيظ صوته. قال:
ـ ربّما اضطررنا لدفع ضعف مرتّباتهم..

وغمر وجهه أسىً واضح. أضاف:
ـ باهظة جدًّا الغرامات التي تهدِّد الشركة في حالة تأخّر المشروع..

* * *

لم تكد تسرّ لأحد مراقبي الموقع عن نيّة الشركة بتشغيل عمّال الموقع ساعات إضافيّة، حتى عرف الجميع بالخبر. عمّت الموقع حالة من النشاط لم تكن تتوقّعها. تسابق العمّال في إظهار قوّتهم، وإخلاصهم، واستعدادهم للعمل دون توقّف، وأنّهم قدموا إلى هنا للعمل لا للرحة. ولم يتردَّد البعض في استعطافك، راجياً منك أن تخصّه بالعمل في الساعات الإضافيّة، وهكذا تحوَّل الموقع إلى خليّة نحل لا تهدأ، على مدار الساعة..

* * *

(٢) حالة الموقع الجديدة أجبرتك على أن تحثَّ الجميع على مضاعفة الحذر والانتباه. أصدرت أكثر من تعميم. اجتمعت بالمراقبين وبيَّنت لهم أنَّه يجب التشديد على اتِّباع أنظمة وتعليمات السلامة، وأعدت على مسامعهم:

ـ لا تتهاونوا في أيّ شيء..

كنت ترى العمّال مندفعين يعملون على ارتفاعات عالية، وسط

ورشة عمل أقرب ما تكون إلى لوحة سرياليّة قضبان حديد، ألواح خشب، أكوام الحصى، تلال الرَّمل، حركة عربات ومعدَّات النَّقل، دوران الرافعات البرجيّة، وصبّ الخرسانات.

أصبحت تقضي معظم ساعات يومك في الموقع. زاد ارتباطك بالعمَّال. حفظت أسماءهم. صرت تمازحهم. كانوا يتمنَّعون في البدء، ومع شيء من التشجيع منك، يفتحون قلوبهم. يتحدَّثون معك بكلِّ شيء. ولحظة تنسحب يودِّعونك بحبّ..

* * *

كنت جالساً في غرفة مكتبك تراجع بعض المخطَّطات عندما فاجأك مراقب الموقع يلهث، وبصوت متقطِّع أفلت:

- أحد العمَّال سقط..

حدقتا عينيك تتّسعان عليه وصوته:

- سقط من الطابق الخامس..

قفزت تخرج من مكتبك، تركض. لاحظت أن الهرج يعمّ الموقع. مجموعة عمَّال يهرولون، يحملون نقَّالة. ومن بعيد أبصرت سعيداً يسرع باتّجاه السيَّارة. العمَّال ينزلون النقَّالة، وأكثر من صوت هلع:

- محمد خان..

الدماء تغطِّي وجهه. دون حراك بدا، محمد خان. أحد العمَّال يصل يحمل بين يديه قطعة قماش مبلَّلة. يمسح وجهه، بينما ظلَّ الآخر دون حراك. سعيد يصل. تُحمل النقَّالة إلى السيَّارة، فتنطلق. بينما يخيِّم الوجوم على الموقع..

* * *

بعد أقلٍّ من ساعة، وصل رئيس المهندسين. اقتربت منه. بدا متضايقاً وصوته:

ـ ما الخبر؟!

ـ أحد العمّال سقط من الدور الخامس.

ـ عامل؟!

سأل بانزعاج، وأنت بضيق:

ـ نعم.. عامل.

ـ كم أجرته اليوميّة؟! ما اسمه؟!

ـ محمد خان..

ـ كم؟!

كرَّر سؤاله:

ـ ديناران..

أجبت أنتَ، وهو:

ـ لنقل ثمانية.

نظرت إليه، فأكمل بعادية:

ـ هكذا سنخبر شركة التأمين.

ساد الصمت بينكما لبرهة، فأضاف:

ـ لاحظ فرق التعويض..

اتَّسعت عيناك. وبحقد استجمعت غضبك، وصَمَتَ لسانك..

الكويت ١٩ ـ أيّار (مايو) ـ ١٩٨٦.

«ما يصير خاطرك إلّا طيّب»...

. . رنّ جرس المنبّه معلناً الثامنة صباحاً، وذاتيًّا انبعث صوت المذيعة: سيِّداتي وسادتي أسعد الله صباحكم. إذاعتنا تحيّيكم وتقدِّم لكم ثاني نشراتها الإخباريّة لهذا اليوم، تقرأها على حضراتكم. .

يرفع رأسه متثاقلاً. يداهمه الصداع. يسحب يده. ضغط على صدغيه. يترك رأسه يعود يسقط على المخدّة. يحسّ بغمٍّه جمًّا. صور ضبابيّة تتشكّل في ذهنه. يرفع رأسه ثانية. كأس البارحة على المنضدة، ويفحّ لنفسه (. . ما كان يجب أن أشرب بعدما رجعت منهم. . أكثرت من الشرب. .) صوت المذيعة يضايقه: شهدت انتفاضة الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة المحتلّيْن نقلة نوعيّة يوم أمس، تمثّلت ببدء. .

يده تمتدّ، فينقطع صوت المذياع. .

* * *

يُنهي حلاقة خدِّه الأيمن. آثار السكر تبدأ تفكّ عنه. تنبعث بمخيلته سهرة الليلة الفائتة. (. . كانت سهرة صاخبة. . لم تضع بنادية ڤيزة العمل. . بنت الكلب. . لعبت برؤوسهم. . يدغدغها أن تستشيرهم. . تسيل لعابهم. . غنّت، رقصت. تلوّت كالأفعى بجسدها الشيطانيّ المتفجِّر. ومثل كلّ مرّة، حين اختليت بها آخر السهرة، وتعرّت أمامي، ضعت في مذاق جسدها الشهيّ، واحترت

كيف أشبع منها . . ناديو . .) يرمي بشفرة الحلاقة، ويدلف تحت ماء السّحّاح . .

* * *

. . يرتدي دشداشته . يخطو يقف أمام المرآة . يتأمّل وجهه، ثمّ ينزل إلى كرشه و:

ـ يجب أن أخفّف . . ما هذا . .

يضرب بيده على كرشه المنتفخ . يبتسم لنفسه، وينسحب مغلقاً باب غرفة نومه خلفه .

يهمّ أن يطرق باب غرفة نوم زوجته . يحجم . (. . ربّما نامت متأخّرة . . ثمّ إنّها لا تُشاهد في الصباح . . ستسأل عن طقم الألماس . . أُف . .) يكمل طريقه .

طعام الإفطار جاهز على طاولة الطعام . خادمة فلبّينيّة تقف منتظرة :

ـ صباح الخير سيِّدي . .

تحيّيه بإنجليزيّة سلسة وهو وبإنجليزيّة أيضاً :

ـ صباح النور . . نسكافّيه رجاءً . .

تنحني الخادمة تصبُّ النسكافّيه، بينما يُلقي هو نظرة خاطفة على عناوين الصحف الرئيسيّة . ينتبه لحركة الخادمة التي تسقي النباتات، وحالما تلتقي نظراتهما تحني الخادمة رأسها وبإنجليزيّة :

ـ صباح الخير سيِّدي . .

يومىء لها برأسه. يشرب النسكافّيه. ينهض. خادمة أخرى تقف قرب مرآة المدخل، تحمل بين يديها: الغترة والقحفيّة والعقال. يقترب منها. تبتسم له و:

- صباح الخير سيّدي..

- صباح النور..

يتناول الغترة والقحفيّة. يضبطهما على رأسه بعناية. يده تمتدّ. الخادمة تناوله العقال. وفي اللحظة ذاتها تصل خادمة أخرى تحمل المبخر، حيث الدخان المتصاعد والرائحة. يبخّر غترته. يتأكّد من هيئته. يلتقط عباءته من على المشحب. ويخرج..

* * *

- صباح الخير سيِّدي..

ينحني السائق يفتح باب السيَّارة الخلفيّ وصوته:

- صباح النور..

يدلف هو، يردّ السائق الباب خلفه. يسرع لمكانه، وحالما يركب، يخاطبه مفلتاً:

- إلى الوزارة..

* * *

.. يضايقه الازدحام. (.. كلّ من هبّ ودبّ صار يمتلك سيَّارة.. اختلط كلّ شيء.. ما عاد شيء يميّز علية القوم..) يرنّ تلفون السيَّارة..

- آلو..

ـ صبَّحاك الله بالخير يا طويل العمر. .

يصله صوت مدير مكتبه:

ـ صباح النور. .

ـ طال عمرك اتّصل السيِّد بو يوسف، وطلب منِّي أن أبلِّغ حضرتك بأنَّ كلَّ شيء تمام. .

ـ ماذا. .

ـ قال: كلّ شيء تمام. .

ـ حسناً. . حسناً. . جهّز أوراقه للاجتماع. .

يسكت لبرهة، ليكمل بعدها:

ـ اتّصل به، وقل له «ما يصير خاطره إلَّا طيِّب».

ـ حاضر. .

يُعيد سمَّاعة التلفون لمكانها، وكمن يتذكَّر شيئاً ينظر لساعة يده. يتناول السمَّاعة ثانية. يضغط رقماً، وبعد قليل:

ـ صبّحك الله بالخير. .

ـ هلا. . صبّحك الله بالنور. .

ـ كيف هي أخبارنا عندكم؟!

ـ تمام. . كلّ شيء جاهز. .

ـ حسناً في اجتماع اليوم سننهي كل شيء. .

ـ يطوّل عمرك. .

ـ حاضر يا بو أحمد. . ما يصير خاطرك إلَّا طيِّب. .

يعيد السمَّاعة. الإشارة الضوئيّة حمراء. سيَّارة تقف بمحاذاتهم. يلتفت ناحيتها. فتاة لوحدها:

- يا صباح الورد. .

يُفلت هو يخاطب نفسه، بينما يضغط بإصبعه على زرّ زجاج نافذته، لينزله. .

* * *

. . يستقرّ في غرفة مكتبه. يدخل عليه مدير مكتبه:

- صبّحاك الله بالخير. .

- صباح النور. .

- هناك أيّ شيء؟!

يسأل هو، وصوت مدير المكتب متودِّداً:

- اتّصل بو عبد الله طال عمرك. .

يبقى متفكِّراً لبرهة و:

- اطلبه لي!

- حاضر. .

يخرج الأخير. يرنّ التلفون و:

- هلا بو عبد الله. .

- صبّحاك الله بالخير يا طويل العمر. .

- صبّحاك الله بالنور

- طال عمرك أردت أن أذكّرك بالموضوع. .

- حاضر. .

- الاجتماع اليوم.

- نعم. .

ـ نأمل بمساعدتك
ـ ما يصير خاطرك إلاَّ طيِّب . .
ـ تسلم يا الحبيب . . لقاؤنا الليلة . .
ـ إن شاء الله . .
ـ مع السلامة . .
ـ أهلاً وسهلاً . .

يُنهي المكالمة . يطلّ عليه مدير مكتبه و:
ـ طال عمرك أحد المراجعين يلحُّ على مقابلتك . .
ـ بخصوص . .
ـ لا أعلم . . منذ أسبوع وهو يتردَّد عليّ . .
ـ هل قابل مدير الإدارة . .
ـ أعتقد ذلك . .
ـ قل له يحضر غداً . .
ـ غداً حضرتك لن تكون موجوداً هنا . .
ـ يا أخي أعلم ذلك . . فقط قل له كما أقول لك .
ـ حاضر . .
ـ هيَّا .

ينسحب الآخر ، وصوته يستوقفه :
ـ جهّزت أوراق الجماعة؟!
ـ نعم طال عمرك . .
ـ حسناً . .

يخرج مدير مكتبه ، ويحدِّث نفسه يدمدم :

- اجتماع . . اجتماع . . كأنّنا سنقرِّر مصير الأمّة!!

* * *

الواحدة ظهراً. صوت زوجته يصله:

- ننتظرك على الغداء . .

- كلاَّ . .

- مضى أكثر من أسبوع لم تأكل معنا . .

- رغماً عني . .

يسكت هو، وصوتها يسأل:

- وطقم الألماس . .

- اليوم سيصلك . .

- أكيد . .

- نعم . .

- يا حبيبي . .

- حاضر . . ما يصير خاطركِ إلاَّ طيِّب . .

- . . .

الكويت - ٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٨

عودة الضوء

ـ مرحباً أبو بسّام!

ـ أهلاً.

انتبه لمجموعة صبْية متحلّقين قرب مدخل البناية. وعندما نظر إليهم:

ـ مرحبا عمّو!

ارتفع صوت صبيّ آخر يسلِّم عليه، وصوته:

ـ أهلاً عمّو!

لاحظ أنَّه قطع نصف المسافة ما بين مكتب أبي عبد الله وشقَّته. استغرب «أُف! مشيت كلّ هذه المسافة دون أن أنتبه!!»

أَعمدة إنارة الشوارع أُضيئت، وكذا واجهات المحلَّات. «الحمد لله. العمّ أبو عبد الله لم يخيِّب ظنّي. كما توقَّعته، لم يرضَ عن سلوك ولده..» ينحرف في مشيته قليلاً ليتحاشى حفرة صغيرة تجمَّع فيها بعض الماء. «ستهدأ أمّ بسّام عندما تعلم بالخبر. ها هو كلّ شيء قد انقضى بسلام. كنتُ متأكِّداً. قلت لها، بأنَّ العمّ أبا عبد الله لا يمكن أن يقبل بهذا..»

يُهدِّىء من مشيته. يُعدِّل من وضع عقاله. إحساسه بأنَّه سيظهر أمام زوجته بمظهر العارف ببواطن الأمور يهزّه. فيبعث النشاط في خطواته العجوز. يمشي.

«أُه! ها هو محـلّ أبي رامي. أعتقد أنّـه رآني، ولهذا سـأقف أُسلِّم عليه. ولو أنّي لا أرتاح إليه..»

- مرحبا يا أبا رامي!

«أكره نظراته الباردة..»

- أهلاً! أهلاً! تفضَّل.

نهض أبو رامي يُقدِّم أحد الكراسي:

- شكراً! أنا مُستعجل!

«لا بدّ أن أسرع. فأمّ بسّام تنتظرني قلقة..»

- استرح قليلاً!

- مرّة قادمة إن شاء الله!

- نشرب القهوة!

- أشكرك.

«يا أخي اتركني..»

- قابلت أبا عبد الله؟!

«هكذا إذن. تريد أن تعرف كلّ شيء..»

- نعم.. نعم.. السلام عليكم.

ينسحب، يترك الآخر. يكمل طريقـه، وصورة استقبـال أمّ بسّام لـه تملأ مخيلتـه. يحسُّ بعض الألم في ركبتيـه. ينحني يتحسَّسهـما. «لم يعد في العمر الكثير. سيقول الناس، أبو بسّام بعد ما شاب راح على الكتّاب. صعبٌ عليَّ أتعلَّم قيادة السيَّارة الآن..»

يقف. يتلفَّت، كأنّه أراد أن يتأكَّد من هـاجس مرَّ بـه. ولكنّه مـا

يلبث أن يستأنف مشيته «أكيد الماء والكهرباء رجعت لشقّتنا الآن! أمّ بسّام كانت ثائرة. لم تدعني أستريح، أفلتت:

ـ الكلب هـذا! ابن أبو عبـد الله ضرب أسعد وسبّني.. تجنُّ هي عندما تغضب:

ـ أبوه اختلف مع أخيك، الزفت، فجاء ينتقم منّا.»

بصعوبة يجرُّ قدميْه المتعبتيْن. أفنى عمـره هنا، ولكنّـه ظلَّ كغـيره، يعيش على القشور. وأبداً لم يُكتب لهم أكثر من ذلك:

ـ «ابن الحرام قطع الماء، وفصل الكهرباء عن شقّتنا».

لاحت آثار ابتسامة على قسمات وجهه المكدود. «أحبّها أكـثر حينما تغضب. تصبح امرأة غيرها. كانت تحمل الصغير فرج، تهدهده على صدرها تقذف بكلماتها. ولكنّي قاطعتها:

ـ اهدئي. سأذهب حالاً للعمّ أبو عبد الله، وأتفاهم معـه! ولكنّها ظلّت غاضبة:

ـ أبو عبد الله!!

في تلك الأثناء لمحت أسعد و:

ـ تعال!

صرخت بـه. خطا نحـوي. وعندمـا اقترب تبيَّنت هـالة زرقـاء أسفل عينيه اليسرى:

ـ والله! سأقلع عينيه في المرّة القادمة!

ـ يا أمّ بسّام اذكري الله!

كانت ترتجف، ويحسّ بها صغيرها على صدرها راح يصرخ..

يقف على حافّة الرصيف. السيَّارات تمرّ مسرعة. «على ماذا هم مستعجلون؟! لا أعلم»!

أبو عبد الله مدَّ يده لي. صافحني. منعني من الوصول إليه وتقبيله كعادتي. قال:

- تفضَّل استرح!

بدأتُ أتكلَّم، ولكنّه، وقبل أن أكمل، قاطعني:

- لا! لا! هذا لا يجوز!

كان بالكاد قد عبر الشارع. يقف، وكأنَّه استدرك شيئاً ما. «هل كان أبو عبد الله يعلم بالأمر؟!» ظلَّ لفترة سارحاً. ويحسم الأمر. يعود يمشي.

«مرَّت فترة صمت بيننا، قبل أن يخاطبني:

- أخوك.

رحت أستمع له بإصغاء. وعندما لم يضف شيئاً قلت أنا:

- طال عمرك هو صديقكم. وأعتقده شريككم في أكثر من مشروع.

- ولكنه يبقى أخاك!

أَردت أن أقول له، رغماً عنّا، ولكنّه وعدني بأنَّ الماء والكهرباء ستكونان بشقّتي قبل أن أصل.

سأرى ضوء الشقّة حالما أنعطف في الشارع القادم. كنت أهمّ أخرج من مكتبه عندما دخل عليه ولده، توقَّعت أن يصرخ به يوبِّخه، ولكنَّه خاطبني قائلاً:

ـ حسناً أبو بسَّام! تفضَّل اذهب لشقَّتك!

وخرجت..»

من بعيد يرصد إضاءة شقّته فيبتسم. ويهمُّ على نفسه، يحاول أن يسرع في مشيته.

* * *

شقَّة أبي بسَّام مضاءة. الصمت والوجوم يخيِّمان على كلِّ شيء. لليلة الثانية وأسعد غائب. وفجأة ينطلق صوت أمّ بسَّام:

ـ بسَّام أخذ المسدَّس وخرج!!

الكويت ١٤ ـ أيلول (سبتمبر) ـ ١٩٩١

ليلة أخرى...

لغط أطفالك يملأ الصالة. تنفجر، ترفع صوتك صارخاً:

ـ أحمد.. سأضربك!

تنظر لهم بحدّة. يخيِّم الصمت. يسكن الجميع. يختلس أحمد النظر إليك. يتبادل وإخوته النظرات، تعود ثانية لصحيفتك، وشيئاً فشيئاً يتبخَّر أثر صرختك، تبدأ الوشوشة، ويعود اللَّغط:

ـ بابا.. بابا..

يد بشرى فوق كتفك. تستدير إليها:

ـ متى ستحضر لي الحقيبة الجديدة؟!

تبتسم في وجهها و:

ـ إن شاء الله حبيبتي..

تستمرّ تعلّق عينيها الصغيرتين بوجهك. تزهو بأعوامها الثمانية، وبعض عتاب يلوِّن صوتها العذب:

ـ ألم تقل حين أنجح؟!

ـ صحّ..

تهزّ رأسك. تؤيِّد كلامها، فتكمل هي بثقة:

ـ متى ستحضرها؟!

ـ أوَّل الشهر..

وتبعدها بلطف عنكَ، قلت:

ـ هيَّا.. هيَّا اذهبي وساعدي ماما في المطبخ!

ـ حاضر..

تعود لصحيفتك، فيصلك صوت هناء من المطبخ:

ـ زياد.. افرش الجريدة!

ـ ...

بعد فترة، تطلّ حاملة الصينيّة، تنحني، فتختلس النظر لصدرها. تصطادك، تبتسم لها، ويرتفع صوتك:

ـ أهلاً بالعشاء..

تبتسم هي. ترتّب وإيّاها الأطباق. أطفالك يتحلّقون حول الجريدة. الصغير أحمد يتجنّبك. يستدير يجلس بقرب أمّه. تطالعه، وتبتسم له. بسرعة تتحرّك أيديكم، وبلذّة تأكلون..

* * *

الهدوء يلفّ جلستكم. قلّ حديث أطفالك الذي لا ينتهي، وكذلك حركتهم. اكتفوا بمشاهدة التلفزيون. خدر لذيذ تسرّب لأجسادهم الصغيرة. رقبة أحمد تميل برأسه و:

ـ حمّودي..

ينتبه. تشير إليه:

ـ تعال بابا..

ينهض بكسل. يدنو منك. تحتضنه تقبّله و:

ـ هيّا إلى فراشك!

ـ تصبح على خير..

ـ وأنتَ من أهله..

الـواحـد تلو الآخـر انسحب أبنـاؤك الأربعـة إلى غـرفهم. بقيت لوحدك. دخّنت سيجارة. افتقدت هناء، وصوتك:

ـ هناء..

ـ ...

ـ هناء..

ـ نعم..

تنهض. تقصد غرفة أبنائـك. تُصلح من وضع أغـطيتهم، وتتّجه إلى المطبخ:

ـ بسْ...

تفزع هي بحبّ و:

ـ زياد..

تضحكان. تدنو منها. تقبّلها. تتمنّع قليلاً، ويخرج صوتها ملوّناً:

ـ زياد..

ـ ماذا؟!

ـ ليس هنا..

ـ أحبّكِ

ـ وتنام كلّ ليلة قبلي..

ـ آه..

تُفلت مستدركاً و:

ـ لن أنام الليلة.

ـ أكيد؟!

ـ سأقتلكِ..

ـ سنرى.

تفلت هي متوعِّدة، وأنتَ:

ـ سأذهب لأغتسل..

ـ ثمّ تنام..

يدك تمتدّ تقرص مؤخّرتها و:

ـ قُلتُ لكِ لن أنام!

تبتسم هي، وبنزق ترقّص رقبتها..

* * *

تخرج أنتَ من الحمّام. تنادي:

ـ هناء.. هناء..

ـ ...

هي قرب حوض المغسلة، تدندن بلحن، وبضيق تُفلت أنتَ تخاطبها:

ـ ألم تنتهي بعد؟!

ـ لم يبقَ شيء.

بسرعة تحرِّك يدها، لتجفِّف الحوض، وأنتَ:

ـ دعيه هكذا..

ـ سأُجهّز ملابس الأولاد للمدرسة.

ـ أنتظركِ..

ـ حسناً. . أنا قادمة. .

ـ . . .

* * *

تتـأكّد من وضـع المنبِّـه قـرب رأسـك. عليـك أن تستيقظ مبكّـراً كعـادتك. أنتَ تعمـل من السادسـة صباحـاً، وحتَّى السابعـة ليـلاً. ثلاث عشرة ساعة. تمتصّ كلّ يومك وقوتك. بتعبك وعرقك تشتري راحة أسرتك، وينتظرونك مـاءً تُبلِّل جفاف أيّـامهم. أهلك هناك في الوطن البعيد. .

حـين تعود مسـاءً لبيتـك تحـرص عـلى الجلوس وسط أطفـالـك، ولكن. . صوت خطوات هناء المسرعة ينتشلك:

ـ نمت؟!

ـ كلاً. .

ـ لا تنم. . ابقَ مستيقظاً. . أريدك الليلة. .

يدغدغك. تضحك و:

ـ أنتظركِ. .

ـ أحبّك. .

تقول كلمتها، وتسرع تتخلّص من ثوبها، تقصد الحمّام.

تسـترخي أنت في الفراش. عيـونك في مقـابلة السقف، وللحـظة تخيَّلت أنّه ينخفض، ينطبق عليك. .

* * *

حاداً يرتفع صوت منبِّه الساعة. تقفز مذعوراً من نومك. لوحدها هناء في الطرف الآخر من السرير. الخامسة صباحاً. تنظر إليها بحسرة. ها قد انقضت ليلة أُخرى، وقبل أن تخرج لعملك تكتفي كعادتك بأن تطبع قُبلة على جبينها..

الكويت ـ حزيران (يونيو) ـ ١٩٨٧

تحت الشمس...

● السادسة صباحاً:

(.. لا أدري لماذا هو يكرهني.. المراقب محمود.. منذ اليوم الأوّل له في الموقع.. يكلّفني بأكثر الأعمال إرهاقا.. تعبت.. لم أعد كما كنت.. الغربة والتعب أكلا عمري.. الحمد لله.. غداً يصبح اسماعيل باشمهندس، وأرتاح من كلّ هذا..)

- أبو اسماعيل!

صوته يصلك، وأنتَ:

- نعم..

عيناك معلّقتان به، وتوقُّعك:

- أنتَ وعبد الغفّار تكملان حفر قواعد الأساسات..

- حاضر..

تلتفت لعبد الغفّار. عدم الرضا مرتسم على قسماته. تحملان معوليكما، وصوت عبد الغفّار متذمّراً:

- توكّل يا عمّ!

تبتعدان قليلاً. محمود يوزّع باقي العمّال، وصوت عبد الغفّار:

- .. ربّنا يهدّك..

* * *

● حرارة الشمس تلسعك:

الإشاعة تملأ الموقع. الشركة عازمة على إنهاء خدمات العمّال

المسنِّين. وحدك تعول أسرتك وأخواتك. أبنك اسماعيل في السنة النهائيّة..

ـ أبو اسماعيل..

صوت عبد الغفّار ينتشلك. تلتفت إليه، وهو:

ـ الحاج فتحي وصل أمس من البلد..

لم تعلّق بشيء، فأضاف بعد برهة:

ـ ألا تودّ الذهاب للسلام عليه؟

ـ سأفعل..

ـ...

(.. سنة واحدة وأرتاح.. الله.. أعود ثانية أعيش بين عيالي.. أراهم صباح مساء.. أُملّي عيوني منهم، وأقبّلهم.. أبو الباشمهندس.. اللّعنة عليك يا محمود.. شمس جهنّم هذه..) تُعدّل من وضع طاقيّتك على رأسك. تلمحه، محمود، متّجهاً نحوكما. تشدّد قبضتك على معولك. وبكلّ قوّتك تهوي به تحفر..

ـ انظر..

عبد الغفّار يمسح عرقه، مشيراً لمحمود الذي اتّخذ مكاناً في ظلّ المحددة..

ـ دائماً يتعقّبنا..

عبد الغفّار يدمدم، بينما بقيت أنت ساكتاً، ترفع معولك وتهوي به..

ـ كلانا بعمر والده..

لم تعجبك جملته، وتخاطبه متبرِّماً:

- اشتغل وأنت ساكت يا أخي..

- ...

ودون أن تنظر إليه، أكملت تحفر والشمس..

* * *

● **العطش إبر تنغرس في فيك:**

(.. طيِّب هو مع جماعته.. يختار لهم أسهل الأعمال.. يخصُّهم بالأماكن الظليلة.. عندما كلّمته في الأسبوع الماضي.. قلت له: إنّني أعمل طوال يومي، وأبداً لا أُغادر مكاني. ورغم ذلك فلم تسجَّل لي أية ساعة عمل إضافي.. خبيث.. قال: إنّه مُتفضِّل عليّ بأن يتركني أعمل..) خمس وثلاثون سنة وأنتَ تكدُّ وتشقى.. انحنى ظهرك، وشاب رأسك.. ترمي بنفسك كالميّت على السرير عندما تعود.. تنتبه إلى أنَّ أنفاسك تتلاحق. قبضتك ترتخي على معولك. تعبٌ بعض الهواء. الإحساس بالعطش يتسرَّب إليك. محمود الزفت لم يزل في مكانه.. عبد الغفّار عرقان مثلك. العطش إبر تنغرس في فيك. لا بدَّ أن تشرب ماء. ستذهب مسرعاً. لن تغيب طويلاً. شربة ماء وتعود..

- هلا أبو اسماعيل..

بادرك محمود، قبل أن تصل لعنده، وصوتك:

- اشرب ماء..

أشار برأسه (امضِ..) من غير أن يقولها..

● **عمولة:**

(.. أعرف أمثال محمود.. يريد إحضار عمّال جدد للموقع.. يقبض منهم عمولة.. مصطفى فرّاش المهندس أخبرني.. الكلب محمود ظلّ لأكثر من ساعة يحاور الباشمهندس، بخصوص الاستغناء عن خدمات العمّال الكبار.. الذين ما عادوا يعطون مردود رواتبهم.. أين سأُولِّي؟! صعب جدّاً أن أجد عملاً جديداً.. كلُّ الشركات تبحث عن العمّال الشباب..)

ـ عمّ أبو اسماعيل كيف حالك؟!

جاءك صوت بدري قرب برّاد الماء:

ـ الحمد لله..

تخيَّلت ابتسامة بلهاء تعلو وجهه، وكمن يخاطب نفسه تُفلت:

ـ تمام..

ـ ...

* * *

● **الباشمهندس قادم:**

.. في طريق عودتك لمكان عملك لم تجد المراقب محموداً في مكانه. (.. مصطفى قال: الباشمهندس كلّف محموداً بإعداد كشوف بأسماء العمّال الذين سيتمّ الاستغناء عن خدماتهم.. ربّما لهذا وقف هو يراقبني وعبد الغفّار.. ربّما كان من الأفضل لو أنّي لم أذهب لشرب الماء.. ولكنَّها الشمس الملتهبة، والعطش اللّعين..)

تتلفَّت رافعاً معولك، وتهوي به. (.. في آخر مرّة، اسماعيل انحنى قبّل يدي و:

- سأعوِّضك كلّ تعبك..)

- الباشمهندس قادم..

صوت عبد الغفّار يُنبّهك. (.. هذا يؤكِّد ما قاله مصطفى.. الباشمهندس نزل إلى الموقع، ليتأكَّد بنفسه من كشوفات محمود..) ترفع معولك عالياً، وبقوَّة تهوي به و:

- ها.. ها.. ها..

المهندس يقترب منكما:

- كيف حالك أبو اسماعيل؟!

- ربّنا يبارك فيك يا باشمهندس..

تُحمِّل صوتك ودّاً واضحاً. تعتدل واقفاً. تمسح عرقك عن جبهتك، وتلتفت لعبد الغفّار تستحثّه:

- سنُنهي حفر القواعد قبل الظهر..

- ...

تعود تحفر. تختلس النظر للباشمهندس. ترى أثر جملتك عليه..

* * *

● ظالم هو:

.. لو كان محمود أمرك بالعمل في مكان ظليل. أشعَّة الشمس سياط تلهب ظهرك. تفكّ أزرار قميصك. تبلع ريقك فيداهمك جفاف فمك المرّ. (.. لن أستطيع أن أذهب مرّة ثانية لشرب الماء..

لو عاد ولم يجدني.. ظالم هو.. سيتّهمني بأنّي قضيت طوال المدّة في الحمّام.. سأعتبر نفسي صائماً..)

عبد الغفار يتوقّف عن الحفر. يرمي بمعوله. وأنت:

ـ ما بك؟!

تتلفّت. تعتدل. تمسح عرقك.

ـ سأذهب للحمّام..

بقيت تنظر إليه فأضاف حانقاً:

ـ العن أبو الشغل على أبو الشركة..

(.. من المؤكّد بأنّه لا يعلم بكشف العمّال..)

ـ أحضر لي بعض الماء معك!

ـ تعال معي..

ـ لن أذهب.

قذفت بجملتك، وصوته يستحثّك:

ـ تعال يا أخي.

تسكت، وصوته يقول متألّماً:

ـ الجوّ لا يُطاق.. وأعمارنا..

ـ عبد الغفّار..

صوتك يقاطعه. ينظر إليك، فتفلت متضايقاً:

ـ لا أريد ماء.

ـ ...

* * *

● **تحفر والشمس:**

(. . من الأفضل أن أتماسك. . سأحتمل. . تعوَّدت هذا. . قسمة ربِّنا. .) يداك ترتفعان بالمعول. ألم حادٌ ينبت في كتفيك. تحسُّ بثقل المعول عليهما. جافٌ فمك. قلبك يخفق بسرعة. تتلفَّت، وتهوي بالمعول تحفر والشمس. .

* * *

● **كاتب الدوام:**

. . الرابعة عصراً. كاتب الدوام مُحاصر بالعمَّال يوزِّع عليهم بطاقات نهاية الدوام، وصوته ينادي:

- سيِّد سيِّد اسماعيل،

لا ردّ. يكرِّر هو النداء. العمَّال يتلفتون حولهم، أكثر من صوت بنفاد صبر:

- أبو اسماعيل. . يا أبو اسماعيل. .

يطوي كاتب الدوام البطاقة، ويكمل ينادي على العمَّال. .

* * *

● **سؤال:**

. . السادسة مساءً، وصوت المحقِّق يسأل عبد الغفَّار:

- أين أكتشفت الجثَّة؟!

الكويت ١ - آب (أغسطس) - ١٩٨٨

مجبور...

. . تتنهَّد بعمق، تُفلت: مؤلم، نركض العمر كلّه وراء اللّقمة. . تستمرّ صامتة، تغرز إبرتها في القماش من ناحية، وتخرجها من الناحية الأخرى. .

* * *

. . شوارع نظيفة سيَّارات لامعة. سريعة ما دامت الإشارة الضوئيَّة خضراء. عيناك تبحثان عنه، تحت ظلِّ كفك. احمرّت الإشارة، واخضرّت عشرات المرَّات. بصعوبة تنتقل بين السيَّارات.

بيده اليمنى يزيح خصلة مبلَّلة عرقاً من على جبهته، بينما يرفع بنطاله القصير باليد الأخرى:

ـ بابا. . بابا. .

يرنو إليك بصوته الأليف. تلتفت إليه، وأنتَ تعيد باقي النقود لرجل داخل سيَّارته:

ـ بعت جرائدي. .

لا تُعلِّق، فيضيف بصوت ودود:

ـ أَذهب؟!

ويردّ صوتك تعباً:

ـ باقي رزمة واحدة. .

ـ مرّة أخرى؟!

صوته شاكٍ، تحاول تغيير نبرة صوتك:

- آخر مرّة.

- آخر مرّة.. آخر مرّة.. آخر..

مشوِّحاً بيده، متّجهاً ناحية رزمة الجرائد الموضوعة على الرصيف، يرفع الحجر الذي يمنعها من التطاير. بغير رضى يلتقط اثنين، اثنين و:

- وليد..

صوتك الأجشّ يجعله يلتفت:

- النقود..

فاركاً إبهامك بالسبابة:

- النقود!!

يردِّد بعدك، متحسِّساً جيب بنطاله، وأنتَ:

- هاتها!

الإشارة صفراء. يده على جيبه:

- هيَّا!

قال صوتك ملحَّاً. الإشارة حمراء. تتعالى أبواق السيَّارات تطلبك:

- هيَّا بسرعة!

تصرخ به. بضيق يضع النقود على الرصيف قرب الجرائد، ويستدير بجسمه الصغير إلى الناحية الأخرى..

* * *

.. الإشارة خضراء. السيَّارات منطلقة. الجوّ ملتهب. صورة

فاطمة تلحُّ عليك. كعادتها تغرز إبرتها في القماش وتخرجها بصمت، وأنتَ:

ـ سآخذ وليد معي..

ـ لا يزال صغيراً.

ـ لا خيار لي..

ـ ومدرسته؟!

ـ يعيش وإخوته أهم.

ـ ...

كنتما على السرير. ومتحسِّرة تهمس بك:

ـ وليد يتعب..

ـ ...

ـ لم يعد يلعب مع إخوته.

ـ ...

ـ ينام بمجرَّد رجوعه.

ـ ...

لم تنم. تقلَّبتَ في موضعك، وكمن يخاطب نفسه، نبس صوتك عارياً:

ـ مجبور..

ـ ...

* * *

. . الإشارة صفراء. تنهض تتفقّده. بالأمس كنتما عائدين حينما لاحظت صمته و:

ـ ما بك يا وليد؟!

ـ لا شيء. . .

هز رأسه. امتداد شفيته أوحى لك بأنّه يحبس عبرته. اقتربت منه، وبمجرّد أن لمسته انتحب. احتضنته محاولا تهدئته:

ـ بابا. .

استمرّ ينشج. تركته علّه يستريح. بعدها سألك دونما يرفع رأسه:

ـ سأبقى بائع جرائد؟!

ـ . . .

* * *

. . الإشارة حمراء. أنتَ بين السيَّارات. تتفقّده. يتّجه صوب عمود النور، متلكّئاً في مشيته. أشعّة الشمس المحرقة. الأسفلت الملتهب. هو طفل لم يتعدَّ السابعة. أنتَ بين السيَّارات. هو تحت عمود حيث لا ظلّ. مجبور تجعله يعمل معك. له ستّة إخوة، ولكن. . هل سيصبح بائع جرائد؟!

الإشارة خضراء. ستصرفه إلى المنزل الآن. نظرك معلّق به. ستنادي عليه. السيَّارات تنطلق. تتفقّده. يدك ترتفع إليه. منبِّه سيَّارة قوي. تغيم الدنيا بعينيك. تتطاير الجرائد من بين يديك، وتسقط. .

* * *

. . بصعوبة تفتح عينيك. دويّ في أذنيك. وجوه كثيرة تطلُّ عليك. وجه وليد بينها. هو يقول شيئاً ما بعينين دامعتين. تحلّق فيه متمتماً:

- الجرائد. .

- . . .

الكويت ١٥ - أيّار (مايو) - ١٩٨١

الفهـرس

أشياء صغيرة ٥
الإنسان لا يموت ١٢
شاشة ١٨
إجازة ٢٤
أحزان صغيرة ٣٠
المقابلة ٤٢

أبو عجاج طال عمرك

(١) فتحت الإشارة ٤٩
(٢) منتشياً يتحرَّك ٥٦
(٣) رويداً أكمل طريقه ٦٢
(٤) بسلامة أبي عجاج ٦٦
زمن آتٍ ٦٩
الرحلة ٧٤
مرساة ٨٠
بيت العزَّاب ٨٧
الموت مجاناً ٩٥

«ما يصير خاطرك إلّا طيّب!» ١٠٢
عودة الضوء ١٠٩
ليلة أخرى ١١٤
تحت الشمس ١٢٠
مجبور ١٢٧

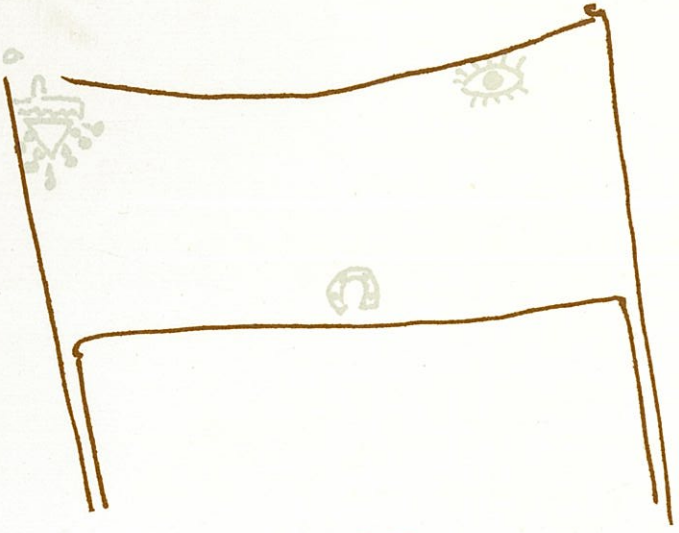

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت

تصميم الغلاف: نجاح طاهر